القراءة..

المجد الذي أضعناه

بقلم/ حاتم إبراهيم سلامة

أوهن الأمم..

أمة لا تقرأ

"الوقت الذي يتوقف فيه الإنسان عن القراءة، هو الوقت الذي يموت فيه"

سلمان العودة

مقدمة

يقولون : إن القراءة هي الحياة.. وإنها الحياة الحقيقة، فهي ذلك السر الذي يهبك حياة سعيدة وافرة راقية، لما تجد فيها من ينابيع الحكمة، واتساع العقل، وتعاظم المعرفة، وذخر الثقافة، والخبرة في الحياة.

يقول سلمان عودة:

"الوقت الذي يتوقف فيه الإنسان عن القراءة، هو الوقت الذي يموت فيه"

ويقول غالب خلايلي:

"الحياة جافة ومريعة بلا قراءة، فالقراءة هي الخبز اليومي الذي لا يمكن أن تستمر الحياة من دونه"

هكذا تكون الحياة في نظر من يقدرونها ويعرفون قيمتها، لكنها في وجدان أمتنا وذاكرتها الماضية، لم تكن مجرد حياة تعيشها ويحقق أفرادها معنى الوجود فيها، بل كانت مجدًا وعزًا وسيادة وريادة وقوة أهلتها لقيادة العالم، وإنقاذ الشعوب، وإرساء منابت الحضارة والتقدم، وبسط معالم الحرية والعدالة والإنسانية.

هذا المجد الذي فرطنا فيه وأضعناه، يوم أن فرطنا في القراءة والاطلاع وغرام الكتب، وهو ذاته ذلك المجد الذي سُرق منا، أو قُلدنا فيه، فنالت أمم الغرب ما نلناه بالأمس، أو ما وهبتنا إياه القراءة في الزمن الماضي من تحضر وارتقاء، وصرنا اليوم نتباكى على عز تليد، وننبهر بأمم لم تفعل شيئًا إلا أنها عظمت أمر القراءة، بعدما كنا نحن سادتها وروادها، واستطاع رجالنا وعظماؤنا أن يضربوا في ميدانها أعظم المثل والشواهد في عشقها والهيام بها، وتحقيق أرقى الإنجازات العلمية والأدبية والثقافية، عبر ولوجها والعناية بدروبها.

وإننا اليوم لا نبكي على هذا المجد الضائع، ولا ننعيه بعد قرون مضت، وإنما ندرك ونوقن أن من سمة الحكماء العقلاء ذي الهمة والعزيمة، أن يعملوا على إعادة هذا المجد، ويقوموا بدورهم الإصلاحي في إحيائه مرة أخرى، لتعود لنا صبغتنا وأصالتنا، ونقبض بأيدينا على ما فقدناه من عز وسؤدد وشموخ.

لابد من إحياء مارد القراءة في ربوع أمتنا كما كنا قديمًا، لتكون منهجًا تشب عليه أجيالنا، ونطبع به عقولنا، ونغذي به هممنا وعزائمنا، حتى نفلت من إسار هذا الضياع والتأخر والتخلف والظلام، ونستفيق من غفلة طالت ودامت وخيمت بجهالتها في ديارنا وحياتنا.

تطوف بك هذه السطور في عالم القراءة، لتعرف أنها السبب في عِظم الإنسان، والطريق الأمثل إلى قوة الدول، وسيادة المجتمعات، بل تدرك أنها القيمة الكبيرة التي فقدناها، وخاصمتها عقولنا وجافتها مجتمعاتنا، فصارت أمتنا في مؤخرة الركب، وذيول الأمم، ولن تقوم لنا قائمة إلا بالانصياع لأول نداء في القرآن الكريم، خاطب به نبينا صلى الله عليه وسلم في قوله: (اقرأ)

إن القراءة فينا إذن.. ليست هواية أو متعة أو شغفا، وإنما كانت فينا منهجنا وعقيدة ودين، وطريق نرتاد بسيطته لقوتنا وعزتنا وتميزنا وارتقائنا، وكم يعترينا اليأس والأسى، ونحن نرى الأمم من حولنا تسابقت إلى دوحتها، فعظمت الكتب، وشغفت بالقراءة، وهامت بالمعرفة، حتى تصدروا الدنيا، وصاروا أعلى منا مكانة وقيمة وقيادة لدفة الحياة.

لقد قصرنا كثيرًا وأهملنا كثيرًا وعجزنا كثيرًا، وآن الأوان لانتفاضة وثورة على هذا التبلد المريع، والتأخر المشين، والظلمات التي صرنا نتخبط في أدراجها مشتتين، آن الأوان أن نُمسك بالكتب، ونصاحب القراءة، وندمن المعرفة، ونقيم المكتبات، لتكون دليلنا في حيرة الحياة.

وكم من خاملون تافهون لا قيمة لهم، كانت القراءة هي المارد الجبار الذي جعل منهم عظماء وعباقرة وقادة وأئمة يقودون الدنيا ويضرب بهم المثل في انفرادهم وإنجازهم، وما كان لهم سبيل غيرها جعلهم يتفردون به على أقرانهم، وجعلهم إلى اليوم أحياء يُذكرون حتى لو مر على وفاتهم مئات السنين.. أرأيت كيف كانت هي الحياة؟

ويأتي اليوم هذا الكتاب الذي نطق به إحساسي قبل قلمي، ليضم هذه المعاني، ويقف على تلك القضية، ويذكر بهذا الأمانة، لنستعيد الوفاء لها، والقيام بواجبها، وحمل مسيرتها، وفوق هذا وذاك، فهو سلوة لعشاق القراءة، ومحبي الكتب، يعرفون منه عظيم نفعها، وجليل أثرها، وقيمة صحبتها، وروعة النظر فيها، وتأثيرها الفاعل على الحياة والمستقبل.

وفي النهاية سنعرف أن القراءة هي عنصر القيادة، وإكسير القوة، والمادة السحرية، التي تبني بها إنسانًا متفوقًا مدهشًا قوي العقل والفكر، بصير الرأي والحكمة.. بل نشيد بها مجتمعا عظيما راقيًا شاهقًا، وأمة كريمة متقدمة مهذبة، يغرد بها الكون، وتشدوا بها الركبان.

حاتم إبراهيم سلامة

لماذا تأخرنا وتقدموا؟

يقول أحدهم:

أذكر منذ عدة سنوات حينما كنت أنا وزوجتي في المترو، وكنت اقرأ في كتاب وكذلك زوجتي، وكانت هناك فتاة أمريكية تجلس بجوار زوجتي وتختلس النظر إلينا، ثم همست في أذن رفيقها بكلمات.. وبعد ما نزولها قالت لي زوجتي: أرأيت إلى هذه الفتاة التي كانت تجلس بجواري؟

قلت: ماذا عنها؟ قالت: كانت تقول لصديقها عنا: رائع! الآن هذا شيء نادرًا ما تراه هنا!

ورغم روعة جملتها ووصفها، إلى أنها وضعت يدها على جراحنا، وذكرتنا بجهلنا، وكأنها تسخر من حالنا وبلادنا التي أهملت القراءة، وغفلت عن الرقي والتقدم.

قمت منذ سنوات برحلة إلى تنزانيا وفي طريق عودتي إلى مصر، لأجلس بضعة أيام بين الأهل والأصدقاء، كان عليّ أن أتحمل ثمان ساعات مضنية من السفر، أقضيها في جوف الطائرة التي تحط رحالها ساعتين -ترانزيت- في كينيا والسودان، ثم تتوجه بعدها إلى لقاهرة، إنه وقت طويل، آمل أن تلفحني فيه سنة من النوم، فلا أستيقظ إلا في نهاية الرحلة.. ولكن لا ضير، فحتى لولم يأت النوم، فإن معي ما يسليني في الأوقات الفارغة المملة.

إنه الكتاب الذي أحمله معي دوماً في أسفاري، فهو خير زاد وصديق ومؤنس في الأسفار والغربة الموحشة، وحينما تراني أعد لوازم رحلتي، تجدني لا أهتم بالطعام والشراب قدر اهتمامي بالكتاب، فهو أول زاد أُعنى به لدسه في حقيبة السفر، وليت ما صحبته معي في

رحلتي لتنزانيا كتاباً واحداً! .. إنه عدد كبير من الكتب. خيل إلي أنني سأقرأها جميعاً، وأنني ذاهب في رحلة للقراءة، وليس في رحلة عمل.

كان مرافِقِيّ يحملون حقيبة واحدة، إلا أنا فأحمل حقيبتين، من كثرة ما شحنت من الكتب التي أشعر باطمئنان لأنها في صحبتي، ومن يراني يظن أنني ذاهب للدراسة أو الهجرة، أو لعمل بحث أو كشف علمي كبير، ورغم علمي بأنني لن أقرأ إلا النذر اليسير من صفحات بعضها، إلا أنني تجشمت عناء حملها، فهي سبيل المتعة والسعادة، وأشعر في صحبتها أنها زاد وذخر، خاصة كتب الأدب منها.

رحلت من تنزانيا إلى كينيا، وهناك ركبت الطائرة المتوجهة للقاهرة، وحينما دخلتها وجدت كثيراً من المصريين والسودانيين، فاستراحت نفسي وبدأ إحساسي بالوحشة يزول، ولكن هناك إحساساً غيره بدأ ينمو ويتعاظم، لقد وجدت مقعدي بجوار فتاة أوروبية.

كانت الفتاة شقراء جميلة، يمكن أن تسر النظر وتشغل الفكر، ولكن كان منها ما هو أدعى للدهش أكثر من جمالها، أو تحول بجمالها إلى منحى آخر غير الحسن والخلابة، بل جعلني أستصغر نفسي وأستقل بعزيمتي التي كنت أظنها قوية، فإذا هي أمام الفتاة صغيرة ضئيلة، إن الفتاة تقرأ كتابا تقبض عليه بيديها، وكأنها تمسك بالنعيم المقيم.

إنها مستغرقة هائمة في القراءة، لا تذهب عينيها يمنة أو يسرة، ما هذه الصلابة الفولاذية، في القراءة وعشق الكتاب؟!، لقد مرت خمس ساعات وهي لا تعبأ بمن حولها وما حولها ولا ترى غير الكتاب، وأمام هذه الفترة الطويلة، لا أذكر أنني في يوم من الأيام واصلت القراءة بمثل هذا الوقت كما فعلت هذه الفتاة، التي فجرت في نفسي ينابيع الغيرة، فلا أراني إلا وقد أخرجت كتاباً من حقيبتي لأسابقها في هذا التحدي، نعم لابد أن أسابقها وأسبقها لأرضي نفسي بأنني أقوى منها، وأعشق للكتب، بل تزايد عندي هذا الشعور ليتحول إلى صراع بين الشرق والغرب، ولن أترك الغرب إلا صريعاً مجندلاً، وواصلت أقرأ وأقلب الصفحات،

صفحة تلو أخرى، ثم أسترق بعض النظرات إليها لأرى منها أي بادرة للهزيمة واليأس، ولكني كلما نظرت أجدها على حالها هائمة مستغرقة في القراءة، حتى خيل إلي أنها فارقت الحياة، وأن مشهدها أمام الكتاب، كمشهد سليمان عليه السلام وهو متكئ على عصاته، فجهلته الجن وكشفته الأرضة.

ثم ها هي تفعل بعض الحركات، وتصدر بعض الانفعالات، التي تشير إلى استمرار الحياة فيها، إنها تبتسم للكتاب ومن الأكيد أنها قرأت نصاً أو فقرة أعجبتها، فرسمت على وجهها هذه البسمات..

كيف لي إذن أن أصارع هذه التي لا تمل؟ إن عزمها جسور لا أستطيع غلبته، كيف لي أن أقضي الساعات الطوال متجمداً أمام الكتاب، مهما كان حبي وعشقي له؟! إنني وبكل أسف أعلنت هزيمتي وأرفع الراية البيضاء أمام هذا الصمود الرهيب، ولكن هزيمتي لم تكن بالهزيمة اليائسة المحبطة، لأنني تعلمت منها كيف أصبر على القراءة، وكيف يكون الكتاب صديقاً وأنيساً وجليساً، بل ومعشوقاً لا أبصر معه شيئًا من العالم..

كما أنني عرفت لماذا تأخرنا وتقدم الغرب.!

مؤخرًا علمت وقرأت أن كل دار في بلاد الإنجليز فيها مكتبة، ولا يخلو بيت إنجليزي من هذه المكتبة، لكن المدهش أنني علمت أنهم أخذوا هذه العادة من بلاد الأندلس، جاءهم هذا السلوك من المسلمين، حينما عمروا هذه الديار وفتحوها وجعلوها منارة لحضارة زاهية أضاءت ظلمات أوروبا.

نعم كانت هذه هي عادة المسلمين قديمًا، أن تكون في بيوتهم مكتبة تعمرها الكتب، جاهلون كانوا أم علماء لا يهم، فالمهم أن تكون المكتبة كائنة شامخة قائمة.

ومما يذكر في هذا الشأن الأندلسي، أن عالما من العلماء احتاج يومًا إلى كتاب فلم يصل إليه، ثم مرت به أيام ووجده معروضًا للبيع بيد الدلال في سوق قرطبة، فزاد في ثمنه ليأخذه، فزاحمه رجل يبدو عليه الثراء، وكلما زاد في الثمن درهمًا زاد الرجل خمسة دراهم، حتى عجز العالم وأخذ الرجل الكتاب، فلما صار في يده جاءه العالم منكسرًا فقال له: بارك الله لك فيه، ولكني محتاج إليه، فهل تعيرني إياه ليلة أقرؤه فيها وأرده إليك؟!

فقال الرجل: والله ما لي به حاجة ولا أدري ماذا فيه؟ ولكن أعجبني شكله، وفي مكتبة بيتي فراغ لكتاب بحجمه، فخذه هدية مني إليك.

لقد دخل الرجل مزادًا من أجل أن يكمل مكتبة بيته التي هو جاهل بما فيها، خاض ملحمة هذا المزاد وأفسد على العالم فرحته بوجود الكتاب، من أجل أن يتمم جمال مكتبته.

وقبل أن أمدح العالم في حرصه على الكتاب، أمدح ذلك الغني الذي حرص على تجميل مكتبته.

فماذا لو أعدنا هذه السيرة في بيوتنا، فتكون المكتبة أهم أساسها وأركانها؟!

شهوة الكتب

يقول أنتوني روبنز:

"العديد من الناس يشترون الكتب، لكنهم لا يتعدون قراءة الفصل الأول"

تلعب الشهوات دورًا كبيرًا في حياة الإنسان، ولعل أبرزها وأخطرها هي شهوات النساء وشهوة المال وشهوة الملك والجاه، ويستخدم الناس دومًا لفظ الشهوة في الجانب السلبي والعمل القبيح والشيء المشين، لكنه في حقيقته يمكن استخدامه في جوانب إيجابية عديدة

وأعمال نافعة محمودة، فهناك شهوات مرغوب فيها ومدعو إليها، وكثير من الناس تتحول بعض الخصال والعبادات والعادات الطيبة في حياتهم إلى شهوة!

فهناك من يشتهي قراءة القرآن، وهناك من يشتهي الصوم، وهناك من يشتهي الإنفاق في سبيل الله.

ولعل من بعض الشهوات الإيجابية التي تُصيب بعض المثقفين أو غالبهم من حيث لا يدركون أو يعون، شهوة الكتب، أو شهوة تجميع الكتب، نعم.. لا تتعجب.. فتجميع الكتب يتحول إلى شهوة عارمة لدى بعض المثقفين، شهوة يبلغ أثرها في النفس أكثر من شهوة جمع المال أو شهوة النساء.!

وراغبو الكتب وعاشقوها يقبلون على جمعها أكثر مما يقبل جمّاع المال على جمعه، والحرص على كنزه وتجميعه.

ويظل الواحد منهم يجمع الكتب ويحشد المجلدات، ويستف الأسفار، ويصف الحواشي، وإذا نظرت لقراءته وحجم اطلاعه لوجدته صفرًا أو تحت الصفر بكثير.!

ربما يبدأ الأمر بالميل للقراءة وحب المطالعة، ثم ينتقل ليصير داءًا، ويتحول لهذه الشهوة، شهوة جمع الكتب، فينصرف إليها بدلاً من القراءة والمطالعة.

أخبرتني إحدى النساء عن صديقة لها تمتلك مكتبة هائلة، فقالت لها مازحة: ما شاء الله لا قوة إلا بالله دار الكتب المصرية عندكم، (مش باين عليك يعني) فقالت: علمني أبي شراء الكتب، ونسي أن يعلمني كيف القراءة؟ وكانت النهاية أن تحولت مكتبتها إلى قاعة خاصة، أصبحت مكان تنزه للفتيات وأنتجت منه مشروع كافيه بصحبة المكتبة خاص بالفتيات.

ولا أخفيك عزيزي القارئ، إنني صرت واحدًا من هؤلاء الذين ابتلوا بهذه الشهوة، فصرت أصرف عليها مالي، وأنذر لتحصيلها قوتي ووقتي، ابتليت بها منذ وقت مبكر من

صباي وشبابي، وكان والدي رحمه الله كلما طلبت منه مالا لأشتري كتابًا يسألني: هل قرأت ما عندك من كتب؟ وإذا ما حدثته أمي في ذلك قال لها: فليقرأ ما لديه أولا، وكان يحاول كثيرًا أن يقنعني بأن الكتب الدراسية التي أتسلمها في الأزهر، أفضل كتب تُقتنى وتُقرأ، ثم ألمح إلي يومًا أن منهجي القرائي خاطئ مختل ناقص ولا يثمر بشئ فقال لي: كيف تقرأ؟ إننا لم نكن نقرأ كما تقرأ اليوم للمتعة اللحظية، ثم نترك الكتاب ونقبل على غيره! كنا نقرأ لنتعلم.

وقد صدقته فيما يقول، ولم أكن لأظن خداعه لي حتى أنصرف عن شهوتي ونهمي في شراء الكتب، لأنه فعلا كان يبهرني بما يحفظ لكثير من المقاطع والنصوص الأدبية لعدد وافر من كبار أدباء عصره، كطه حسين والعقاد والرافعي.

وأذكر وأنا في فوعة شبابي -أوله- كنت أتنافس وبعض أصدقائي من محبي القراءة في تجميع الكتاب، وصارت بيننا في ذلك منافسة شديدة، وتوغلت في رغباتنا حتى صارت ماردًا كبيرًا لا يمكن إيقافه، وكنا نتفنن في الوسائل والطرق التي نحصل بها على الكتب، حينما يُعيينا المال، فكنا نذهب إلى بعض الأزهريين القدامى في قريتنا، ونطلب منهم ما يحتفظون به من كتب كانوا يدرسونها قديمًا، وكنت أذهب لبعض الأئمة والخطباء في قريتي، وأطلب منهم ما زاد عليهم من بعض الكتب التي تكررت طبعاتها، وأهداني أحدهم مرة كتاب الترغيب والترهيب من أربع مجلدات، وكنت به سعيدًا سعادة لا توصف، وحفي به حفاوة من حصل على كنز ثمين.!

وكنت كذلك أذهب للمكتبات العامة والخاصة، وأسألهم عن الركن الخاص بالكتب التي يرخصون ثمنها ويجرون عليها عروضهم الخاصة، وأدمنت الذهاب إلى (مكتبة الأسرة) التي كانت ناشئة مع بداية تطلعاتي المعرفية، والتي أمدتنا بزاد قيم وكبير من الكتب الفريدة الرائعة، التي ما كنا نستطيع الحصول عليها لغلو ثمنها أو لندرة وجودها.

ومن جانب آخر حرصت على شراء مجلة الأزهر، مع بداية كل شهر هجري، لأنها كانت تصدر كتابًا هدية مع كل عدد من أعدادها، وجمعت من ورائها كتبًا عظيمة نافعة، وأبحاثًا طيبة هادفة، لا سيما تلك التي طبعت في عهود الدكاترة أحمد علي الخطيب، والدكتور محمد رجب البيومي، والدكتورة محمد عمارة، وكان كل إنسان يتحدث أمامي عن كتب لديه، أو يأتي على لسانه ذكر كتاب، أنهي حديثه عن كل شيء، وأركز على ما ذكر من الكتب، فإن كانت لديه، لا أتركه حتى يعطيني إياها، وإن كان لا يتذكر أين مكانها، أعينه وأحاول معه حتى يتذكرها لأحصل عليها، فتضاف لأخواتها من الكتب التي تذخر بها مكتبتي، التي لا تعرف متى وأين سألتفت لما فيها من كتب ومجلدات لأقرأ نصفها أو ربعها، أو حتى سدسها أوعشرها، ووجدت نفسي بعد ذلك منهمكًا في الجمع والتحصيل والترتيب والتستيف، بينما أهملت الرغبة الأساسية التي من أجلها أجمع الكتب، ومن يومها أدركت أن جمع الكتب شهوة، وأنني أصبحت أسيرًا لهذه الشهوة، وصرت مهتمًا بها أكثر من اهتمامي بالقراءة.

دائمًا هكذا نجد أصحاب الفكر والثقافة ومحبي الكتب والاطلاع، ربما يتهمهم الناس بالجنون وفساد الحال وغرابة الطباع، لأنهم لا يدركون شيئًا عن جنتهم ومعنى متعتهم التي يهيمون فيها.

وحق للناس أن يتعجبوا من حالهم حينما يرونهم يعزفون عن متع الحياة من الرحلات والفسحات والمرح والتسكع واللهو والولائم والانفاق والتسوق وغيرها من متع الدنيا التي تميل إليها النفس، ويرون أصحابنا يعزفون عنها إلى صحبة الكتب والأسفار والمجلدات!

وكم تصيبهم الدهشة حينما يرونهم وهم يطلقون عليها متعة؟! وهي في أعينهم وعقولهم حرمان أو جنون أو غباء أو تيه أوبَله.!

المفكر الجسور (أنور الجندي) كانت إجازته من العمل يوم الخميس، وهو اليوم الذي كان يهجع فيه إخوانه وأترابه، في رحلات خارج القاهرة يسعدون وينتشون، لكنه كان في سعادة أخرى وجنة مختلفة، حينما كان يصعد إلى القلعة ويقرأ الصحف والمراجع التي تعز بها دار الكتب في باب الخلق.. لقد كان يصفها بأنها رحلة شاق مضنية، لكنه يستعذبها وهو يشعر بأنه يغرق في استخراج النصوص، وهو فرح مغتبط حينما يشاهد هذه المجلدات والصحف التي مر عليها أكثر من خمسين عامًا، وينظر أصحابها ويعيش معهم ويشم رائحتها وترابها.

والحق أن إدمان القراءة والكتب يعادل تمامًا إدمان المخدرات التي تشَربْ بها دم الإنسان، ولا يستطيع الكف عنها أبدًا، وكما ينفق مريض المخدرات كل لديه من مال للحصول عليها، فكذلك مدمن الكتب لو كان له ملء الأرض ذهبًا لأنفقه عليها ولا يبالي.!

وما أكثر ما يضحك المرء من تصوير توفيق الحكيم للعقاد حينما قال عنه: لو دخل العقاد الجنة وبحث عن الكتب ولم يجدها لقال: جنة بدون كتب كيف تكون جنة؟!

كما لا تتعجب حينما تسمع عن أحدهم أن مكتبته وما فيها من كتب، قد تكون عنده في مكانة أبنائه وأسرته وزوجه وأغلى الناس لديه! وكم يكون المرء مندهشًا حينما يرى أحدهم حزينًا يفكر في الموت، لا لأنه قادم إليه وذائق ألمه وقرعه، ولكن لأنه سيحرمه من كتبه ويتركها يتيمة من بعده، لا تجد من يحبها ويحنوا عليها كمان كان يحنو هو عليها.

وهو نفس الإحساس الذي يشعر به مجنون الكتب، حينما يبصر في السوق مكتبة لأحد القراء والمثقفين، يبيعها أبناؤه ويفرطون فيها بعد موته.. إنهم تماما كأولئك الذين يبيعون آثار بلادهم للأغراب والأجانب، ولا يحافظون على تراثهم الذي يعني مجدهم ويمثل فخرهم بل شرفهم.

العلاقة بين الكتب ومحبيها من البشر علاقة لا يفهمها الكثيرون من الناس، فيتعاملون معها بجهل واندهاش وتعجب، فلا يقدرونها يكفرون بأشواقها.

مكتبة أبي

يقول بيتشر:

"إن المكتبة ليست من كماليات الحياة و لا من لوازمها و لا يحق لإنسان أن يربي أولاده بدون أن يحيطهم بالكتب"

ويقول الدكتور عبد الكريم بكار:

"نريد أن ينشأ الطفل وهو يشعر أن القراءة مثل النوم والطعام والشراب واللعب شيء يتكرر كل يوم"

لا شك أن الكتب التي وجدتها في بيتنا منذ طفولتي وصباي، والتي كانت آخر ما تبقى من مكتبة أبي وغفلت عنها أعين اللصوص وأياديهم، كان لها أكبر الأثر في حبي للقراءة وعشقي للكتب ونهمي للمعرفة، بل كانت المغناطيس الذي شدني إلى أبواب الثقافة ودروبها منذ حداثتي، لقد عرفتها يوم عرفتها شيئا عظيما فخيماً ..فمقامها في بيتنا كان كبيرًا والحفاوة بها كانت شديدة، والتشجيع على قراءتها دؤوباً متواصلاً ، والحديث عنها يبهر الأسماع ويولد إليها بذور الشوق.

إن أكثر الأدباء والمفكرين والعباقرة والنابهين، لم يجلبوا نبوغهم أو يكتسبوه إلا عبر هذه المكتبات التي كان يملكها آباؤهم وتعمر بها بيوتهم ، وهو ما يدفعنا للاهتمام بأمر هذا الركن الركين الذي نسيناه في بيوتنا وأغفلنا وجوده على جدرانه، فشب النشء على الجهالة والتخلف وألف الرجعية والظلام، وما عدنا نسمع من أحدهم ما كنا نسمع بالأمس: قرأت في مكتبة أبي، تعلمت من مكتبة أبي.

لقد كان هناك من الآباء من كان يُشجع على القراءة ، ويقف بولده على مكتبته ويعرفه بما في بطونها من كنوز ثمينة، ومنهم من كان يدرك أن مجرد وجود المكتبة في البيت، كفيل بحد ذاته دون حث أو تشجيع أن يخلق في الناشئة ألفة مع الكتب، وينمي فيهم حب الاطلاع وعشق الكتب والتعرف على الثقافة والتزود من المعرفة.

وما أروع ذلك الشاب الذي هم بالزواج، وكان يقوم بتجهيز شقته التي يُقيم فيها مع شريكة العمر، فما كان منه إلا أن جعل المكتبة أول اهتمامه من أثاث البيت، وأفرد لها حجرتها الخاصة قبل حجرة السفرة والمعاش.!

وهي ثقافة ووعي لا يتمتع به إلا القليلون.

لقد أكد علماء النفس أن أحد أهم أسباب ترغيب الطفل في القراءة، والتي سميت بالقدوة القارئة، حينما يكون البيت عامراً بمكتبة ولو صغيرة، تضم الكتب والمجلات المشوقة، وكان أفراد الأسرة لا سيما الأب والأم، من القارئين والمحبين للقراءة، فإن الطفل سوف يُحب القراءة والكتاب، لأنه حينما يراهما يقرآن سوف يقلدهم ويمسك بالكتاب وتبدأ علاقته معه.

إن إهمال الكتاب والمكتبة في محيط الأسرة، نابع من عدم إيمان أفرادها بالقيمة المعرفية، وأنها نواة التحضر وطريق الرقي، والسبيل الأمثل لمستقبل الأجيال.

وقد أثبت تاريخ القراءة أن القدوة فيها عنصر هام وخطير في تدريب الناشئة و الأجيال على القراءة، وإذا ما أردنا درساً عملياً واقعياً في ذلك، فليس أرفع فيه مما حدث للطبيب الدكتور (نجيب محفوظ) صاحب كتاب (حياة طبيب) ورائد علم أمراض النساء والولادة في مصر والعالم العربي.

ولك أن تعلم، أن هذا المقام العلمي، وهذه الملكات الثقافية، كانت نتاجاً للظروف التي أحاطت به وشجعته، فوالده كانت له مكتبة كبيرة، حوت كتباً كثيرة في ميادين شتى، وأبرزها كُتب الدين، التي طالعها نجيب في أوقات فراغه، وتعلم منها آداب المناظرة والإيمان بالحرية لكل ذي فكر، كما كان أبوه مشتركاً في شتى الصحف اليومية والمجلات العلمية، وكانت تعقد بمنزلهم جلسات في قاعة الاستقبال، يدور فيها الحوار بين أزواج أخواته، ويتناولون مختلف الموضوعات، فكان أحدهم يتلو الصحيفة بصوت عال وتدور بعدها المناقشات.

ويحكي الدكتور (نجيب) في كتابه القيم فيقول: (ما أذكره لأبي أنه كان يريدني أن أقرأ له قبيل نومه إصحاحاً من الكتاب المقدس، ويشرح لي ما يخفى علي أثناء القراءة من دقائق المعاني، وكانت أمي تستظهر كثيراً من الآيات، وتفسر لي ما يغمض من معانيها، وفيما بين الثامنة والثانية عشرة من عمري، اشتد شغفي بالقراءة، فلم أكن أدع من مكتبة أبي كتاباً إلا طالعته، كما أني كنت أحرص على قراءة ما يأتينا من نشرات تجارية، تبين أسعار القطن وحركة الأوراق المالية، فإذا استعصى علي فهم شيء منها استعنت بأبي على حل ما يعترضني من غموض).

كل هذه العوامل وما إليها، قد وجهته نحو الثقافة والقراءة وحب العلم والمعرفة، فهي تشجيع ودفع قوي صنع منه عقلية ماهرة متفوقة.

أما (لويس عوض) فلنا أن نعرف أن مكتبة والدة البسيطة اليسيرة، كانت هي الانطلاقة أو البوابة التي دخل منها إلى عالم المعرفة، وكانت المحفز الاكبر والنواة التي تكون منها هذا المثقف والمفكر الكبير، ورغم كونها مكتبة بسيطة يسيرة لا تتعدى كتبها المائة كتاب، إلا أنها كانت صاحبة الفضل فيما صار اليه بعد، فقد ذكرها في مذكراته وتحدث عنها بإعجاب، لما كانت تضمه من نوادر وأعمال ثمينة من صفوة الفكر الإنساني ملكت عليه حياته حينما كان

في المرحلة الثانوية، لقد ضمت من أعمال الحكماء والقدماء ترجمات عديدة وجيدة، وقرأ فيها العديد من الروايات والترجمات والكتب الشيقة التي انتقاها والده، ليدفع عن نفسه ملل الحياة وسأم الفراغ حينما كان يعمل بالسودان.

كما كان الدكتور والباحث الياباني المسلم (أمين ماكوتوميزتاني) من أروع الأمثلة والشواهد على ما جلبت له مكتبة والده من سعادة نفسية، وتغير كبير في مسار حياته، ولد أمين في بيت بوذي مولع بالقراءة ومحب للبحث والكتب وهو ما ساهم في تغيير مسار حياته ، وكان والده وجده من رهبان البوذية، واطلع والده على العديد من الديانات، وكانت مكتبته ضخمة كبيرة تضم العديد من الكتب التي أفادته في مراحل حياته المبكرة ، وفي سن التاسعة عشر تعرف على الإسلام وقرأ صفحات من القرآن، وبعد قراءة متوالية لمعاني القرآن الكريم شعر أمين بقوة الدين الإسلامي وضعف ديانته البوذية، كما كان في تلك الفترة وبعد هزيمة اليابان في الحرب العالمية، يعيش فترات طويلة مضطربًا يبحث عن شيء ثابت وأبدي، وقد أراد أن يكتشف سر ومدخل هذه القوة التي يتمتع بها الإسلام، لقد ساقه الإعجاب بالإسلام الى التعمق فيه وتعلم العربية، وقراءة أي شيء يتعلق بالإسلام وقضى في تعلم العربية ومبادئ دينها، قرابة خمس سنوات، كان كل يوم يقرأ صفحة أو صفحتين، حتى زادت قناعته بالإسلام ولم يبق إلا اعتناقه، وأسلم وأصبح داعية كبيرًا وباحثًا قويًا مرموقًا له مؤلفاته وأعماله البارزة، ثم كان له بعد ذلك منهجه الفطن في الدعوة، حيث ألف كتبا في التاريخ والعمارة الإسلامية، بهدف جذب غير المسلمين وبطريق غير مباشر للإعجاب بالإسلام.

لقد استطاع الرجل أن يقوم بدور كبير في خدمة الاسلام لا يقوم به غيره، كما عبر عن ذلك بعض تلامذته.

كل هذا التحول الكبير في حياة هذا الرجل وما صار اليه، كان بفضل مكتبة والده التي تعلم منها ونهل من فيضها وكانت هي الطريق الهادي لنور الاسلام.!

يعجبني أولئك الذين يجعلون من المكتبة جزءا أصيلا مما يزين بيوتهم، يفعلون هذا حتى ولو كانوا جهلاء لا تقدير في نفوسهم للعلم والمعرفة.

فإن مجرد حفاظهم عليها، هو حفاظ على صبغتنا نحن المسلمين، الذين نعظم العِلم والقراءة، وكانت أول كلمة في كتابنا الإلهي (اقرأ)

يتسابق الناس في الدنيا إلى اقتناء كل ما يزين بيوتهم من الأساس الفاخر، والقطع النادرة، واللوحات الغالية، والفرش الآسرة، والمتكآت المريحة، لكنهم يغفلون عن المكتبة التي يمكن لها أن تفجر من ذريتهم نوابغ من العلماء، لمجرد هذا التعليق الرمزي.

أخلوا مكانًا في بيوتكم للمكتبات، وأظهروا فيها أرفف الكتب، حتى ولو كنتم غير مثقفين، فإنها قبل أن تثمر شيئًا من العلم والحكمة في أبنائكم، فإنها جميلة وباهية ومزهية.

لدي في بيتي مكتبة قيمة ورفيعة، وبها أسفار جمعتها من باكر صباي، فهي تمثل صفحة تاريخي وأيام حياتي، لكنني للأسف لا أظهرها في البيت خوفًا من عدوان الأطفال، الذين لا يستريحون حتى يخربون كل شيء، خاصة إذا علموا حرص آبائهم عليه، إذ يجدون في ذلك متعة كبيرة، حينما ينالون ما صعب عليهم أو منع عنهم، وجعلوا منه فريسة ممزقة، وأنا لايمكن أبدًا أن أتحمل أن أرى كتابًا لي ممزقًا، لأن هذه اللحظة هي اللحظة التي يتمزق فيها قلبي.!

دعوهم يشترون الكتب

لم يكن مصروف العقاد في صغره، يزيد على خمسة مليمات في اليوم، أي خمسة قروش في الأسبوع يتسلمها من والده كل يوم خميس، لم يكن يشتري بها مأكولا أو فاكهة كما يفعل

أصحابه، أو يذهب بها إلى ملعب البهلوان إن زارت مدينهم في أوقات زيارتها، وإذا تجمع لديه ثمن الكتاب اشتراه لساعته، ولم يتردد أو يعطي العطار قرشين بعد قرشين، حتى يتم الثمن المطلوب، وبهذه الطريقة استطاع العقاد أن يقرأ العقد الفريد، وثمرات الأوراق والمستطرف، والكشكول والمخلاة، ومقامات الحريري وبعض الدواوين، ولم تكلفه هذه المكتبة التي اشتراها في صباه أقل من جنيه واحد.!

ولكن هذه الكتب التي اشتراها، لم تكن هي كل ما قرأه في فترة التلمذة وما بعدها، وإنما كانت له طرقه إلى كتب أخرى غير طريق الشراء، حيث كان يقرأ في الكتب التي كان أبوه يقرأ فيها.

يتمنى أحدنا في حياته وعلى طريقة ألف ليلة وليلة، أن يرزق بصندوق مليئًا بالذهب، أو فيه كنز من الجواهر والحلي، لكن مكسيم غوركي رزق بصندوق من نوع آخر، لا يقل نفاسة عن صناديق الكنوز التي تمتلئ بالذهب والفضة، فاستطاع من خلاله أن يكون من عظماء الدنيا. !

كان غوركي فتى أشعثًا طويلا نحيفًا عريض الكتفين أصفر السحنة، صبي مشرد بائس تعيس صعلوك، يرتدي معطفًا فضفاضًا، لم يكن يدور بخلد أحد أبدًا وهو يرى هذا الصبي بهذه الهيئة أن يتوقع له مستقبلا في الدينا، لم يكن أحد يتوقع أن تكون له مكانة في الدنيا أو سبيلا ليكون من عظمائها، أو يظن أن هذا الاسم سيعبر حدود وطنه إلى كل أوطان العالم، كأحد أهم وأعظم الكتاب الثائرين الذين خدموا الإنسانية.

ولد عام 1868 في روسيا ومات أبوه بالكوليرا وهو في الرابعة من عمره، ثم ماتت أمه قبل أن يبلغ العاشرة، وعاش مع جده الذي كان قاسيًا غليظًا عليه حتى طلب منه حينما بلغ العاشرة أن يهجره، ليستقبل قسوة الحياة وهو في هذا السن الصغير، ويرتمي في أحضان الجوع والتشرد والبؤس وقسوة المعيشة.

بدأ العمل في محل أحذية، وانتقل ليعمل غسال صحون على باخرة، وكان في هذه الباخرة على موعد مع القدر الذي غير حياته، ووضع منها أول خطواته نحو المجد المخبأ له، فقد كان معلمه على الباخرة طباخًا اسمه ميخائيل سموري، والذي أيقظ فيه حب الكتب وعشق القراءة، فقد كان هذا الطباخ يمتلك صندوقًا مليئًا بالكتب، يحمله معه أينما سار وذهب، واستطاع سموري الطباخ أن ينمي في الفتى الصغير حب الكتب والقراءة، ومن هذا الصندوق تفتحت الآفاق الكبرى للصبي الصغير، وكان التحول الرهيب لهذا الفتى المشرد التعيس، ليصير فيما بعد من أعظم الكتاب والأدباء الروس.

فيا ترى لو قابل غوركي صندوقًا من الذهب، هل كان بإمكانه أن يجعل منه ما جعله صندوق سموري؟ وهل كنا سنسمع به اليوم أو نقرأ له، أو يكون له هذا التأثير الكبير بأدبه في بلاده والعالم أجمع؟!

بالتشجيع وحده تستطيع أن تحول مسار ولدك وتساهم في التخطيط لمستقبله، يكفيك فقط حينما تراه يميل لموهبة ما، أن تحفزه عليها وتظهر إعجابك لاهتمامه بها، وتبحث بأي وسيلة كيف تزج به في عالمها وسبل احترافها والولوغ فيها؟

إن بعضهم ينهر أبناءه إن رآه يمارس لعبة أو هواية لا ترضيه ولو أنه تريث قليلا وتفكر بهدوء لوجد أنها من الممكن أن تكون طريقاً فسيحاً لنبوغ ولده وسعادته في الحياة.. وإن من أسعد اللحظات التي يقدرها الآباء الواعون.. تلك اللحظة التي يرون فيها أبناءهم يميلون للقراءة ويقتنون الكتب.

إنهم من فرط سعادتهم يدفعونهم إلى عالم الكتب دفعاً، لإيمانهم الشديد بأثرها الكبير في تنوير العقول وتنقية الأفهام وصقل النفوس وإثراء الوجدان، وقدرتها الفائقة على توفير معالم النجاح والتفوق في الحياة.

ويأتينا الدكتور حسين فوزي، ليعترف لنا أن تلك الكتب التي وجدها في مكتبة والده، كانت هي الشرارة الأولى التي أثارت حبه الكبير للقراءة وهي كتب بعيدة كل البعد عن كتب الدراسة الثقيلة إلى نفسه لقد وجد كتاب بدائع الزهور في أخبار الدهور لابن إياس، ومجلات المقتطف والهلال وكتاب عجائب الهند بره وبحره وجزائره ليزرك بن شهريار، والذي يحتوي على مغامرات البحرين العرب والفرس، فيما يشبه حكايات السندباد، ووجد قصة تغريبة بني هلال والظاهر بيبرس والأميرة ذات الهمة، وحمزة البهلوان، كما وجد ذلك الكتاب الذي أجرى عبراته مدرارا: نور العين في مشهد الحسين وكتاب ألف ليلة وليلة وقصة الحسن البصري وسفره بحثا عن زوجته التي هجرته إلى بلادها بجزائر الواق واق وغير ذلك من الكتب الباهرة والقصص الشيقة التي ساهمت في حبه للقراءة.

وتحولت القراءة عنده إلى غرام عارم، وكان والده يشجعه على ذلك، فإنه لما انتقل الى المرحلة الثانوية، وجد مع زميل له في المدرسة كتبًا انجليزية بجلدة حمراء تتصدر أغلفتها صور ملونة، فأبدى لوالده رغبته في شرائها والحصول عليها، فاصطحبه إلى مكتبة الألماني ديمر بمبنى فندق شبرد القديم، فاشترى ما كان يتمناه، ولم ينتقل إلى الدراسة العالية حتى قد قطع شوطًا كبيرًا في قراءة تلك المؤلفات العظيمة التي وجدها في مكتبة أبيه.

وأمام هذا الوعي الحكيم والذكاء العميق، نجد على الصورة الأخرى، آباء يعادون القراءة وينهرون أبناءهم لو أنفق أحدهم مصروفه في شراء كتاب أو مجلة، ويعدونه تبزيراً أو سرفاً فيما لا نفع فيه، وهو غباء منقطع النظير، وحماقة لا تعدلها حماقة، حين يصرفون أبناءهم عن طريق البناء الفكري والعقلي وسبيل الثقافة التي تهبهم في الحياة قدرات تميزهم عن أترابهم.!

ولعل هذا ما أيقنه وفطن إليه ذلك التاجر النبيه والد الأديب الكبير الأستاذ (عبد الوهاب مطاوع) والذي كان تاجراً يعيش في عالم المال ويقيس كل شيء بالمكسب والخسارة فيبيت على تجارة ويصبح على تجارة .

وهذا وأمثاله ربما تسيطر عليهم المادة، ولا يرون شيئاً في حياتهم ولا يقيسونه إلا بالمال وللمال، لكنه كان ذكياً يؤمن بقدرة القراءة في تنمية العقل وتكوين ولده على الصورة التي يرجوها له في خياله.

ففي طفولة الأستاذ كان أصدقاءه يستأجرون الكتب والمجلات من المكتبات حتى يقرؤونها ويشغلون بها فراغهم، واتجه هو معهم إلى هذه الهواية، ولكنه كان يكره الإعارة، ويحب أن يقتني الكتب ويمتلكها، ولم يكن سبيل لذلك إلا أن يضحي بمصروفه، ليشتري ما يروق له منها، وهو ما أدى إلى نفاذه والتجائه لأخيه حتى يستلف منه، وإلى أمه حتى تعوضه ما أنفقه في شراء الكتب.

ولما علم والده بذلك، لم ينهره كما فعل كثير من آباء زملائه، وإنما شجعه على ذلك وأعطاه تصريحاً ليأخذ من موزع الصحف الذي يأتيه كل صباح ما شاء من الكتب الدورية التي توزع مع الصحف، ليقوم هو بمحاسبة الموزع عليها فيما بعد، وقد رفع بهذا عبئا ماليا عنه وكان فعله تشجيعاً قويًا على القراءة وايقاظ مواهبها في ذاته.

لقد أسهم هذا الوالد الرشيد في تحديد مسار ولده في الحياة، وكان هذا التشجيع هو البداية الحقيقة ليصبح فيما بعد أديبًا وكاتبًا كبيرًا يحب الكثيرون قلمه وينتظرون مقالاته.

ولو أنه فعل كما فعل الغير، لربما اتخذ الابن طريقاً آخر غير طريق القراءة، وأصبح في الحياة شيئاً لا علاقة له بالأدب والفكر والثقافة، ولم يكن قد أطل علينا وأمتعنا ببيانه العذب وقلمه الرحيم.!

فاترك ولدك يشتري الكتب وشجعه على اقتنائها وأيقظ في قلبه حبها، فعسى أن يكون في المستقبل شيئاً مذكوراً.

حكامنا والكتب

هل تتخيل أن العروس قديمًا في مصر، كانت حينما تتجهز لعرسها، لابد أن يوضع في جهازها، نسخة من كتاب المزني في الفقه، الذي شرحه العديد من العلماء، و زاد حجمه عن (550) صفحة، تبركًا وبناء لهذه الحياة الجديدة على العلم والفهم والنور والعلاقة الصحيحة مع الله سبحانه، وكان كذلك كتاب صحيح البخاري له مكانة كبيرة في النفوس، فهو في أغلب بيوت مصر، ويتجمع الرجال في المساجد والأندية لقراءته والتبرك به، حتى طغى على البعض جهلا أن يحلف به ويقول لك: والبخاري كذا، والبخاري ما فعلت كذا، ومازالت موجودة على ألسنة كثير من المصريين إلى اليوم، بل بلغ بالمصريين أنهم كانوا يقرؤونه في الحروب للتبرك وطلب النصر على الأعداء من الله تعالى.! كما حدث أيام الخديوي اسماعيل في حرب الحبشة.!

لقد كانت المجتمعات المسلمة قديمًا تقدر كلها قيمة الكتاب والقراءة، ولم يكن المصريون وحدهم في هذه المحمدة، حتى في فترات الجهل، كانت تعتز ببعض الكتب، وتنزلها من حياتها منزلة القداسة، وحينما تم التفريط في حب الكتاب، ساد الجهل والتأخر والركود، بل إنك لو بحثت في أسباب وعوامل التأخر والتراجع، لوجدت الإعراض عن القراءة، والتخلي عن الكتاب، أحد أهم هذه العوامل التي أدت لتراجع هذه الأمة.

ومع أول اللحظات والملاحم التي بدأت فيها تكوين نواة هذه الأمة، كانت القراءة وتعليم الكتابة ضرورة حاضرة.. انظر وتأمل هذا الشيء العجيب المذهل! رجل يقيم دولة ويقود حربًا، ويتولى كبر صراع عنيف بينه وبين طغاة قومه، حتى فصلت بينهما السيوف، ثم يقتل من قتل ويأسر من أسر، ويعرض على من أراد أن يفدي نفسه من الأسر، أن يُعلم القراءة والكتابة لـ(10) من أبناء المسلمين.

وإني لأتعجب كيف لم تقف عقول القرشيين أمام هذا القرار الخطير موقف المتأمل، فيدركون أن الرجل فعلا لم يكن زعيما أو متسيدًا أو منازعًا لسلطانهم، وأنه فعلا لم يكن إلا نبيًا وزعيمًا ومنقذًا ومخلصًا.

ففي الوقت الذي تحتاج فيه الحرب للمال والمتاع والفداء، وأجور الجند وتحصيل القوت، وتطبيب الجرحى والانفاق على أسر الشهداء، يأتي هذا القائد الفذ فيركل كل ذلك بقدمه، وينظر لتعليم الصغار ويجعل منه فداء الأسير.!

إن عدوهم إذن له بُعد سحيق، ورؤية عميقة، إنه يريد أن يصنع دولة، ويقيم أمة قوية فتية عالمة قارئة، بل كان أولى بهم أن يقفوا متفكرين ماذا يفعل محمدًا، وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب؟ من أين أتاه هذا الإدراك بقيمة القراءة والكتابة؟ كل هذه معان كان يمكن أن تهديهم لحقيقة الرجل العظيم والنبي الكريم صلى الله عليه وسلم، لولا الحقد والعناد الذي يعمي البصائر.. ثم لنرجع إلى الوراء برهة لنقول: كان الأولى بهم أن يدركوا ذلك حينما كان أول ما نزل عليه من أمر الرسالة قوله تعالى: (اقرأ باسم ربك)

هكذا كانت أمتنا، الدين والناس والحياة والمجتمع والحرب والسلم والفقر والغنى، كلها حالات كان يصاحبها إيمان قوي بالكتاب، وتدعو الكتاب وترافق الكتاب.. بل فوق هذا كان الزعماء والسلاطين يعشقون الكتب، فحينما تقرأ تاريخ الرشيد وسيرة جده وابنه المأمون، تجد كلامًا يفوق الخيال، في حب الكتب وعشق المكتبات، وفي الأندلس كان عبد الرحمن الناصر مولعًا بالكتب والقراءة وقيل: إنه جمع (400.000) كتاب نفيس، وذكر الذهبي عنه: أنه جمع من الكتب مالم يجمعه أحد من قبله ولا بعده، وكان باذلا للذهب في استجلاب الكتب من البلاد القريبة، و يجد لذة في شرائها، بل قيل: إن ما كان يمتلكه من الكتب كان يفوق ما تمتلكه مكتبات أوروبا، ولهذا كان عبد الرحمن الناصر، وإذا أردت أن

تعرف من هو عبد الرحمن الناصر فاذهب للبحث عن ذلك الاسم الذي أرعب أوروبا كلها أيام حكمه.. ربما لأنه كان قارئًا مصاحبًا للكتب التي هي القوة الحقيقية.

وقد ورث عنه ولده الحكم المستنصر هذه الخاصية وهذا الحب وهذا الإيمان.!

يقول عنه ابن الخطيب: «وكان -رحمه الله- عالمًا فقيهًا بالمذاهب، إمامًا في معرفة الأنساب، حافظًا للتاريخ، جمَّاعًا للكتب، مميِّزًا للرجال من كل عالم وجيل، وفي كل مِصرٍ وأوان، تجرَّد لذلك وتهمم به؛ فكان فيه حجة وقدوة وأصلاً يُوقف عنده». ويقول عما وصلت إليه الأندلس في عهده من الرقي والتحضر: «وإليه انتهت الأبهة والجلالة، والعلم والأصالة، والآثار الباقية، والحسنات الراقية»

أنشأ الحكم بن عبد الرحمن المكتبة الأموية، تلك التي تُعَدُّ أعظم مكتباتِ العصور الوسطى على الإطلاق، وكانت تُنافس مكتبة قُرْطُبَة ومكتبة بغداد، وقد دفع آلاف الدنانير لجلب أعظم الكتب إليها من كل مكان في العالم، وكان له عمَّال وظيفتهم الوحيدة هي جمع الكتب من مشارق الأرض ومغاربها من بلاد المسلمين ومن غير بلاد المسلمين، فإذا جاءوا بكتاب في الفلك أو الطب أو الهندسة أو غيرها من أي بلد غير إسلامي تُرجِمَ على الفور وضُمَّ إلى المكتبة الأموية، وقد وسَّع الحَكم بن عبد الرحمن الناصر في المكتبة كثيرًا، وجعل لها أَرْوِقَةً عظيمةً حتى تستوعب كثرة الحضور من المسلمين.

وكان الحكم المستنصر -رحمه الله- يشتري الكتب مهما بالغ الناس في أسعارها، وقد أحضر في مكتبته هذه النسخةَ الأولى من كتاب الأغاني للأصفهاني (وهو الكتاب الشهير في الأدب) وأصفهان هذه الآن من مدن إيران، فأين إيران من إسبانيا الآن؛ فالرجل لم تكن تقف أمامه التخوم ولا الحدود!

ولم يكن جماعًا للكتب محفزًا على القراءة فقط، وإنما كان في نفسه عالمًا مطلعا قارئًا، وشارك في علوم عصره قارئًا وعالمًا ومثقفًا. فأتقن العلوم الإسلامية حتى أن بعض الشيوخ سمعوا منه الحديث النبوي.

ويقول الدكتور حسين مؤنس في كتابه (معالم تاريخ المغرب والأندلس) :" وقد عثرنا بالفعل على كتب عليها خط الحَكم وملاحظاته، وكان العلماء بعده يعتبرون هذه الملاحظات أصولا تعتمد. ولم يقتصر على علوم العرب بل عنى بكل العلوم، وتحت إشرافه ترجم قاسم بن أصبغ البياني، وحفص بن البر، كتاب التاريخ لهيروشيوش من اللاتينية، وترجموا له كتاب ديسقورديوس في الطب من اليونانية. وكان يرسل الناس إلى شتى البلاد ويطلب إليهم أن يكتبوا دراسات عما زاروه من الأقطار ويحتفظ بهذه الدراسات في مكتبه."

ما أروع الدنيا حينما يهتم الحاكم بالثقافة والفكر ونشر العلم والمعرفة، ويكون حبيبًا للمفكرين والعلماء والأدباء، لا شك ان الدنيا وقتها ستثمر كثيرًا من الخير والابداع والرقي والحضارة، بل سيتوجه المجتمع كله توجها آخر نحو الريادة والصدارة والتفوق والنهوض.

ونحن دائما ما نعكف على حضارتنا وتراثنا وأماجدنا لنأخذ منهم العبرة، ونثبت للدنيا كلها كم كانوا عظماء، وكم كانوا نبلاء نجباء، سباقين لكل فضل ومكرمة.

نحن اليوم نتعجب وتندب حظنا ونحن نتذكر ونروي علاقة الغربيين بالكتاب وعنايتهم بمكتباته، وكيف أنه صار في حياتهم شيئًا اصيلا لا يستغنون عنه، ونروي ونردد ما نعلم من إيمانهم الكبير بأنه أقصر الطرق للتفوق على الأخرين.

نفعل هذا ونحن نندب حظنا العاثر، وجهلنا العميق، وتقصيرنا المفرط، وغاب عنا أننا أحفاد أمة كانت تقدس الكتاب، وتهيم بالمعرفة، وتعظم أمر الثقافة إلى حد لا نهاية له.

نعم هذا هو ماضينا وتراثنا ورجالنا، الذي يحاولون اليوم أن يشوهوا صورتهم في كل ميدان، ويريدون لنا أن نتبرأ منهم، وننفض أيدينا من سيرتهم، بل ونخجل أن ننتسب إليهم، وندعي أننا فروعهم وأنهم جذورنا.

اسمعوا يا أهل الثقافة، ويا رواد المعرفة، اسمعوا وانظروا وأبصروا وأخبروا العميان فينا كيف كنا وكيف كانت حضارتنا وأسلافنا مع الكتب.؟

يقولون ويروون عن المأمون العباسي: أنه كان يعطي للمترجمين زنة ما يترجمون من الذهب الخالص، فالذي يترجم كتابًا يأخذ ثقله ذهبًا، ولم تكن الكتب يومها تكتب على أوراق كما هو حالنا اليوم، وإنما على سعف النخل والقماش وأحيان على قطع الحجارة، وهذا يدلنا على الأجر الكبير الذي كان يناله المترجمون والمفكرون.

وجاء في معجم الأدباء عن الجاحظ "أنه دخل البصرة مرة، ثم خرج منها بثروة كبيرة بعد فترة قصيرة، فسأله ميمون بن هارون: ألك بالبصرة ضيعة؟ فتبسم الجاحظ وقال: أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبي داود، فأعطاني خمسة آلاف دينا، وأهديت كتاب الزرع والنحل إلى إبراهيم بن العباس الصولي، فأعطاني خمسة آلاف دينار، فانصرفت عن البصرة وكأن لي فيها ضيعة لا تحتاج إلى تجديد أو تسميد."

فمن من الأمم كان حكامها يهيمون بالكتب هذا الهيام، وفي أي أمة كان المؤلفون يغتنون هذا الغنى؟ ألا إننا حقا كنا سادة الكتب.

يقول السرجاني: إن مفتاح قيام هذه الأمة هو كلمة: اقرأ... لا يمكن أن تقوم الأمة من غير قراءة.

صندوق سموري

يتمنى أحدنا في حياته وعلى طريقة ألف ليلة وليلة، أن يرزق بصندوق مليئًا بالذهب، أو فيه كنز من الجواهر والحلي، لكن مكسيم غوركي رزق بصندوق من نوع آخر، لا يقل نفاسة عن صناديق الكنوز التي تمتلئ بالذهب والفضة، فاستطاع من خلاله أن يكون من عظماء الدنيا.!

كان غوركي فتى أشعثًا طويلا نحيفًا عريض الكتفين أصفر السحنة، صبي مشرد بائس تعيس صعلوك، يرتدي معطفًا فضفاضًا ، لم يكن يدور بخلد أحد أبدًا وهو يرى هذا الصبي بهذه الهيئة، أن يتوقع له مستقبلا في الدينا، لم يكن أحد يتوقع أن تكون له مكانة في الدنيا أو سبيلا ليكون من عظمائها، أو يظن أن هذا الاسم سيعبر حدود وطنه إلى كل أوطان العالم، كأحد أهم وأعظم الكتاب الثائرين الذين خدموا الإنسانية.

ولد عام 1868 في روسيا ومات أبوه بالكوليرا وهو في الرابعة من عمرة، ثم ماتت أمه قبل أن يبلغ العاشرة، وعاش مع جده الذي كان قاسيًا غليظًا عليه حتى طلب منه حينما بلغ العاشرة أن يهجره، ليستقبل قسوة الحياة وهو في هذا السن الصغير، ويرتمي في أحضان الجوع والتشرد والبؤس وقسوة المعيشة.

بدأ العمل في محل أحذية وانتقل ليعمل غسال صحون على باخرة، وكان في هذه الباخرة، على موعد مع القدر الذي غير حياته، ووضع منها أول خطواته نحو المجد المُخبأ له، فقد كان معلمه على الباخرة طباخًا اسمه ميخائيل سموري، والذي أيقظ فيه حب الكتب وعشق القراءة، فقد كان هذا الطباخ يمتلك صندوقًا مليئًا بالكتب يحمله معه أينما سار وذهب، واستطاع سموري الطباخ أن ينمي في الفتى الصغير حب الكتب والقراءة، ومن

هذا الصندوق تفتحت الآفاق الكبرى للصبي الصغير، وكان التحول الرهيب لهذا الفتى المشرد التعيس، ليصير فيما بعد من أعظم الكتاب والأدباء الروس.

إنك تكون في أسمى درجات السعادة، حينما تجد كتابًا ممتعًا تبصر فيه ما يجذبك ويفيدك، وتلمس فيه قدرة قوية على إخراجك من عالمك المحبط الكئيب، إلى عالم آخر تهيم فيه حالمًا منتشيًا.!

فيا ترى لو قابل غوركي صندوقًا من الذهب، هل كان بإمكانه أن يجعل منه ما جعله صندوق سموري؟ وهل كنا سنسمع به اليوم أو نقرأ له، أو يكون له هذا التأثير الكبير بأدبه في بلاده والعلام أجمع؟!

يقولون عن غوركي أنه كان قارئًا نهما، ولعلها اللفظة التي ذكرتني برجل من أفذاذنا وهو الإمام اللكنوي[1] فقد كان يحب القراءة والمطالعة ويجد في ذلك متعة كبيرة، بل كانت مطالعة الكتب والاستفادة منها أحب إليه من الدنيا وما فيها، ولعله تخطى حالة النهامة التي قيلت عن غوركي، إلى أن تكون القراءة هي الهواء الذي يتنفسه ويحيى به.

قال تلميذه محمد حفيظ الله : قال ـ أي اللكنوي ـ مراراً: إني لما أكون مريضاً فمن علامات صحتي شوقي إلى مطالعة كتب العلوم.

وقال أيضاً: ورأيت بعيني حين توفيت والدته الماجدة فجاءوا ـ أي الناس ـ عنده لأداء التعزية، فوجدوه مشغولا بمطالعة الكتب فعجبوا منه، فلله المشتكى ما جاء عنده أحد إلا تعجب وقام بحيرة النفس.!

[1] ـ هو الإمام الشيخ محمد عبدالحي بن محمد عبد الحليم الأنصاري اللكنوي الهندي أبو الحسنات الفرنجي محلي، فخر المتأخرين، ونادرة المحققين المنصفين، والمحدث، الفقيه، الأصولي، المنطقي، المتكلم، المؤرخ، النظار، الباحث، الناقد، ولد في بلدة (باندا) في الهند في يوم الثلاثاء 26 من ذي القعدة سنة 1246

كان ـ رحمه الله ـ يتحمل المشاق والمتاعب ويسهر الليالي في سبيل تحصيل العلم وخدمته، وكما يتحمل حرارة الشمس والعطش من أجل تحصيل العلم، وكان دائماً ينشد أشعار الإمام السبكي :

سهري لتنقيح العلوم ألذ لي** من وصل غانية وطيب عناقي

وتمايلي طرباً لحل عويصة** في الذهن أبلغ من مدامة ساقي

ويدل على شغفه بقراءة الكتب أيضاً، أنه خصص جزءاً من وقته لمطالعة الكتب وتصنيفها، فكان يجلس لمطالعة الكتب وتصنيفها من بعد المغرب إلى منتصف الليل، من دون وقفة العشاء ولا يمل بذلك.

وكما كان حريصاً على المطالعة والتصنيف، كان حريصاً كذلك على اقتناء الكتب النادرة في مختلف العلوم والفنون من المخطوطات والمطبوعات، ويلاحظ ذلك عند المصادر التي عول عليها الإمام اللكنوي في كتبه في الحديث وعلومه، فقد استخدم كثيراً من المصادر والمراجع التي لا توجد إلا بشق الأنفس.

قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة: "وقد يقع في خَلَد بعض ذوي الهمم القاصرة والعزائم الخائرة أن يحملوا هذه المطالعة من الشيخ اللكنوي على مثل (مطالعتهم) التي يفعلونها، وهي تقليب البصر في أوراق الكتاب حين شرائه أو أثناء اقتنائه! ولكن الشيخ رحمه الله تعالى كان إذا يطالع الكتب والأسفار يَفليها فَلْيا، وينخلها نخلا ويستخرج منها مكنون العلم وعويصه و غاليه، ويدل على ذلك أوضح دلالة جودة تصانيفه التي تحفل بالنقول النادرة والنصوص الناضرة، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وقد كانت لديه مكتبة جامعة عامرة

غنية في كل فن وعلم، تبدو ضخامتها واستيعابها من تواليفه التي تطفح بالنقول عن كتب لا تزال مغمورة في عالم المخطوطات قل ان يسمع بها أو يعرف عن وجودها شيء."[1]

الكتب في القلب

يقول نجيب محفوظ:

"إن أكبر هزيمة في حياتي هي حرماني من متعة القراءة بعد ضعف نظري"

عجيب أمر هذه الكتب، التي تسرق لب الإنسان، وتستقر مكانتها ومعزتها في قاعه، كما تستقر أهم الأشياء في حياته، حتى وهو في أعز محنه وأشد ظلاماته، يعظم حنينه إليها، ويظل قلقه دائمًا عليها، بل تصارع في مشاعر هذا القلق، لتأخذ نصيبًا ربما يفوق أو يوازي نصيب الرغبة في الاطمئنان على الأهل والولد.

وفي محنة السجن التي يتجرد فيها المرء من كل شيء، ولا يبقى في قلبه حرص على أي شئ، سوى سلامة نفسه التي يحاصرها الضيق والألم، أو سلامة الأهل والولد الذين يعجز عن رؤيتهم ورعايتهم وهو بعيد عنهم.

يأتي هؤلاء المثقفون، بأعجب العجائب، وأغرب الغرائب، وهم يضيفون الكتب إلى قائمة الأعزاء، الذين يقلقون عليهم، ويثيرون اهتمامهم، والشغف بهم والاطمئنان عليهم في غربتهم وتجردهم عنهم.

نعم لقد عشت هذا الشعور، وساورني يومًا هذا القلق، حينما هممت بالسفر للعمل في دول الخليج، فكان أو ما أوصيت به أهلي مكتبتي، أن يصونوها، ويحفظوها ويرعونها، ويتعهدونها بالتنظيف والتنظيم، كما لو أنني كنت موجودًا حاضرًا، وكأنني أقول لهم بلسان حالي: لا تجعلوا كتبي تشعر بمرارة الاغتراب التي أشعر بها.

[1] – تعليقات الشيخ عبد الفتاح أبو غدة على كتاب الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة للإمام اللكنوي

لقد كان بيني وبينها حنين عظيم، وحب لا يبارى.

كنت أتمثل قيمة الكتب وقيمتها في نفوس أصحابها، حينما قرأت عن أسرة الإمام ابن تيمية رحمه الله التي فرت من التتار، ولم تحمل معها إلا الكتب، وبعض المتاع اليسير في عربة تجرها الدواب.

قرأت عن المحامي الإنجليزي برودلي، الذي جاء إلى مصر ليدافع عن الثوار، عرابي ورفاقه، وكان من ضمن الأوراق التي تركها برودلي من هذه الأيام، خطاب من الإمام محمد عبده لأسرته، حيث كان في السجن، فماذا ياترى كان في هذا الخطاب؟

والخطاب موجه لابن الإمام، وفي بدايته يتحدث عن سكن جديد انتقلت إليه الأسرة فيقول: «فإن شاء الله يكون مباركًا، ويكون متسعًا ونظيفًا، وأرجو أن تخبروني عن موقعه وهيئته، وعدد المحلات التي فيه، يلي ذلك حديث عن مبلغ من المال طرف الشيخ الباجوري وحساب معقد، وحديث مقنَّع عن رجل لا يسميه الإمام، ويصفه بأنه (المقيم بشارع الشيخ سلامة) ثم ينتقل بعد ذلك، للحديث عن الحمار التي تملكه الأسرة (إذا تصرفتم في الحمار فلا يكون بأقل من عشرين بنتو) -وهي عملة تركية كانت شائعة في مصر آنذاك- وأظن أنه يساوي أكثر إذا كنتم ملتفتين إليه في الأكل والشرب والنظافة، ومع ذلك تخبرونا بما يرسي عليه ونعطيكم الرأي».

ومن الحمار ينتقل الإمام للحديث عن الكتب، فما أبعد الشقة بين الاثنين، كما ذكر الكاتب صلاح عيسى في كتابه هوامش من دفتر الوطن، حيث تحدث الإمام عن كتاب «حاشية ابن عابدين» (خمسة أجزاء كانت في الدولاب، وأظن جزءًا منها كان على الترابيزة، اتركوا الجزء الأول وهاتوا بقية الأجزاء، وإذا وجدتم منها غائبًا، فيمكن أنه طرف الشيخ داغر).

حديث آخر عن كتاب «الأحكام السلطانية» وثالث عن «شرح العقائد النسفية» وتفاصيل عن هموم الحياة الصغيرة..

وفي نهاية الخطاب، فقرة يوصي فيها الإمام أسرته، فيقول: "والذي أوصيكم به دائما، وتوصوا به الجماعة -كناية عن السيدة حرمه- هو الحذر من السارقين والخونة من النساء والرجال، ويلزم أن يكون محل نوم الجماعة، في مكان بعيد عن الطريق، ويكون معهم في محل نومهم، الشنطة والصندوق ودولاب الكتب، وكل ما يخاف عليه بالنهار، يكون ذلك المحل مغلوقا مع التحفظ على المفتاح، وتكون إقامتهم بالنهار في «أوضة» أخرى غير التي فيها هذه الأشياء، واشتروا لي نتيجة أوقات من حساب سنة 1300هـ (1883م)، وأسرعوا بشراء قماش الفانلا بمعرفة من يعرف فيه، وفصلوا لي جلابية وخيطوها بالسرعة عند «محمد عبدالنبي» أو غيره وأرسلوا «الوقائع» - أي جريدة «الوقائع المصرية» وهي الجريدة الرسمية للحكومة المصرية، منذ ذلك الحين وحتى اليوم من بعد يوم 20 ذي الحجة كما اخبرتكم سابقًا."

وأمام هذا الخطاب التراثي، من رجل سجين، يطمئن على أسرته ويوصيهم، كانت الكتب حاضرة ومهمة، ومن أجل وأهم الوصايا والأمانات التي يلفتهم إليها، ويوجه عنايتهم بها، وليس تلك الكتب التي في حوزتهم فقط، بل يرشدهم حتى إلى الكتب التي أعارها لأصدقائه، والأهم من ذلك، أن والدته، أو جماعة الشيخ تراعي الحذر من «الخونة والسارقين» على متاعهم، وأوله هذه الكتب.

الكتب في المحن

لعل أسعد الناس حظا بموهبة القراءة هم السجناء، لأنها تستطيع أن تخرجهم من ظلام السجن وعتمته، حينما يجدون معالم الحرية وبريقها بين السطور والورقات، وهي مشاعر وأحاسيس لا يشعر بها إلا عشاق الكتاب.

وبخصوص السجن والسجناء، فقد أظهرت التجارب، أنه فترة خصبة لتعليم ضيوفه وتدريبهم على القراءة التي يمكنها وبكل تأكيد أن تحولهم إلى أناس آخرين صالحين إيجابيين بنائين للمجتمع، لأن السجن كما يزعمون عنه: تأديب وتهذيب وإصلاح، تخيل هذا الشاب السجين المشرد الذي اتهم بالسرقة والسطو في سجون أمريكا، حينما استطاعت القراءة أن تحوله من مجرد لص إلى أعظم وأكبر مصلح إنساني وزعيم ديني في حياة أمريكا.! وكانت له جهوده في الدفاع عن السود وحقوق الإنسان، وتصحيح مسار الدعوة الاسلامية من الانحراف والخطأ.. لقد كان هناك مثل حي لنابغة أمريكي استطاعت القراءة خلف القضبان أن تحول مسار حياته وتجعل منه مصلحًا كبيرًا وزعيمًا مرموقًا، إنه (مالكولم إكس) الذي عاش في الفترة التي تأججت فيها العنصرية الأمريكية ضد السود في أسوأ حالاتها، فقد كان والده قسيسًا و ناشطًا سياسيًا لأكبر منظمة للسود، كانت عائلته معذبة منكوبة، حيث قتل البيض والده وأربعة من إخوته، وأحرقوا منزلهم، وعالت أمه سبعة من أخوته وعملت خادمة، ولاقت عنتًا كثيرًا بسبب نشاط زوجها، وأدخلت المصح العقلي لإصابتها بانهيار عصبي، وتوزع وإخوته على الملاجئ، وعاش حياة التسكع والجريمة، و طرد من المدرسة وعمره 16 سنة، ودخل السجن عام 1946م، ويومًا ما يكتب إليه أخوه "فيلبيرت" بأنه اهتدى إلى دين جديد يدعو للفضيلة والسمو الأخلاقي، ونصحه ألا يدخن ولا يأكل لحم الخنزير، وتمنى لو أنه يهتدي إليه، وهو الأمر الذي لم يتوان (مالكولم) في قبوله فأعلن إسلامه، وكان في السجن مكتبة ضخمة تحوي عشرة آلاف مجلد قديم ونادر، فتردد

عليها ولزمها لينهل من معارفها، فكان يقرأ 15 ساعة في اليوم ، قرأ فيها كثيرًا من الكتب وفي مختلف المجالات، في الأديان والفلسفة والتاريخ وغير ذلك مما تحمله مكتبة السجن في بطون كتبها، وعندما تُطفأ الأنوار في العاشرة مساء، كان يقرأ على ضوء المصباح الذي في الممر حتى الصباح، فقرأ قصة الحضارة وتاريخ العالم.

كان السجن له كما يقولون: (مرحلة اعتكاف علمي، انفتحت فيه بصيرته على عالم جديد) وارتفع من حياة التسكع إلى حياة القراءة و الثقافة، وتمتع بمهارة الخطابة، ودعا زملاءه في السجن للإسلام والتمسك بالفضائل، فاستجاب له الكثيرون، فصدر العفو عنه بعد سبع سنوات من محبسه.! أصبح (مالكولم) من أكبر العلماء والدعاة المسلمين في أمريكا وبطلاً من أبطال السود ورمزًا لمناهضة العنصرية والتسلط الكبير من البيض على السود، كل ذلك بفضل القراءة خلف القضبان التي أهلته لهذه الزعامة والدور الكبير. إن قصة (مالكولم) مدعاة للإعجاب والتأكيد على دور القراءة في ارتقاء الإنسان وتقويم سلوكه، والسلطة التي تمنع القراءة وتحجبها عن السجناء، إنما هي سلطة جاهلة، تحرم الإنسان من أسباب استقامته وسعادته، أو هي مستبدة جائرة تخشى القراءة، وتحذر ما تسببه من وعي يضر بسلطانها ويضرب عروشها.! لأنها النور الذي يبدد ظلامها الذي تريده أن يخيم على العقول والقلوب، فلا ترى ولا تتحرك لغاية، ولا تهتدي للحرية التي هي السعادة الحقيقية للإنسان!

وهذا حال السجين الأمريكي.. أما حال السجين المصري، فكان من أمره عجبًا حين حدثت في حقه هذه الفكاهة التي يرويها الأستاذ محمود السعدني حينما كان في السجن، وكان يذهب للمكتبة التي لم يكن يسمحوا فيها إلا ببعض الكتب الدينية والإنسانية وعيون التراث، حيث استلفت نظره وجود أجزاء من كتاب قصة الحضارة للمؤلف الأمريكي (ول وايريل ديورانت) فسعد به كثيرًا، ولكنه يريد في شوق عارم أن يتطلع إلى الأجزاء الأخرى ليقرأ

فيها فسأل عنها فقيل له: إن سجينا آخر قام باستعارتها.. ومرت أيام طوال وكلما سأل عنها قيل له : إنها مازالت بحوزة هذا السجين، ولما سأل عنه قيل له: إنه سجين مخدرات .. مما دفع السعدني أن يشك في الأمر، وأخذ يتساءل ما علاقة القراءة وقصة الحضارة بسجين مخدرات؟! لابد من زيارته والوقوف على أمر هذا المثقف العاشق الذي استبد بأجزاء الكتاب.. وفي الزنزانة (17) ذهب لزيارته ليجد سجين المخدرات قد استعار مجلدات كتاب قصة الحضارة لا ليقرأها، وإنما لينام عليها كوسادة تحت رأسه.!

والسجن والنفي قرينان في العقاب، لكن النفي على قساوته ومرارته، لا يحرم الإنسان من الكتب، بل على العكس يمكن أن تكون الكتب فيه فرصة لنسيان آلامه وغربته عن وطنه، وهو ما حدث لأمير الشعراء (شوقي)

قرأت مؤخرًا عن حياة أمير الشعراء رحمه الله، حينما وقعت الحرب العالمية الأولى، ماجت الدنيا واضطربت، وانضمت تركيا للألمان، فعمدت إنجلترا للإطاحة بنظام الحكم في مصر الموالي للسلطان، فأعلنت انتهاء حكم الخديوي عباس حلمي الثاني، وأصدرت حكم النفي على كل المقربين منه من رجاله وحاشيته، وكان من هؤلاء المقربين الشاعر المرموق أحمد شوقي أمير الشعراء، الذي كان تربية القصر، وشاعر العرش، وينظر إليه الجميع على أنه شاعر البلاط الملكي، ومن ثم اعتبره الإنجليز من أهم الشخصيات التي لابد أن يصيبها أمر النفي خارج البلاد، فأمروه بالرحيل إلى إسبانيا، فجمع عائلته، واصطحب مكتبته وسائر مرافقه، وغادر مصر إلى برشلونه، فاستقر بها وأدخل أولاده في المدارس المرموقة، واستقر به الحال والعيش، واندمج في البيئة المحيطة به، وهنا وأمام هذا الفراغ في مجتمع ودنيا غريبة عليه، كانت فرصة ساقته ليعكف على دراسة كتب الأدب العربي، فاستوعب منها مالم يكن قد استوعب من قبل، وطالعها كلها حتى أنه كان يقول: "إنه ليس في الأدب العربي كتاب لم أستوعبه خلال السنوات التي قضيتها منفيا في إسبانيا، وساعدني على ذلك طبيعة الجو

اللطيف الذي يشبه جو الإسكندرية، وجمال المناظر التي تحاكي ضواحي الأستانة في رشاقتها ونظامها.

يقول (شوقي) وهو يتحدث في حواره بمجلة الهلال عام 1929م عن تلك الفترة، وأثرها على تكوينه الأدبي، ونبوغه الشعري: "في هذا الجو وفي هذا الوسط الكريم، نشأت نشأة أخرى في الأدب العربي واستأنفت دراستي له بعناية واهتمام، وتوفرت على رياضة الذهن في ثمرات القرائح العربية منثورها ومنظومها فحصلت على ثروة لم أفز بها من قبل"

ويرى بعض الباحثين أن هذه الرحلة، كانت السبب الكبير في تطوير شعر شوقي وروائه، وجنوحه إلى مناحي أخرى لم تهدم القديم أو تتبرأ منه، ولكنها كانت إضافة جديدة لهذا الشاعر العملاق، فإن ما قاله في مطالع شبابه وكان مستمدا من بيئة صوفية دينية كنهج البردة وشعر المديح، أضيف له طرح آخر جديد في مراحل نضوجه وتقدمه العمري، حين كتب في سن الستين، شعره الغرامي والوجداني والعاطفي الرائع، وصور غراميات كليوباترا وحياتها وصور جنون قيس وهيام ليلى.!

نعم كانت هذه الرحلة أو هذا النفي القسري عن وطنه وقومه التي يسرت له وحدة، كانت هي الحادث الأخطر في حياة شوقي على أدبه وفنه وإبداعه وشخصيته كلها.! وكأن الاستعمار بهذا العقاب قد خدم الأدب والشعر، وزان وأصقل بظلمه وصلفه وطغيانه.. بيان أمير الشعراء.

خلف القضبان

أقر مجلس مقاطعة (كالابريا) في جنوب إيطاليا مؤخراً مشروع قانون يقلّل مدة السجن مقابل عدد الكتب يقرأها السجين سنوياً، في خطوة لإخلاء السجون المكتظة في الدولة، وتشجيع الوعي والثقافة والمعرفة.. وبحسب ما نقلت الصحف فإن قراءة ١٦ كتاباً في العام

الواحد ينقص 48 يوماً من مدة الحكم ، أي أن قراءة كتاب واحد يعني خفض ٣ أيام من المدّة المقرّرة للسجين.. ويأمل الممثل الثقافي للمقاطعة أن تزيد هذه الخطوة من معدلات القراءة، كما يأمل أن تساهم في الوقت ذاته، في خفض الاكتظاظ داخل السجون، وذكر بأن السجناء سيراقبون لضمان عدم التلاعب بهذا القانون وأنه من المتوقّع أن تخفّف المبادرة المستقاة من تجربة برازيلية مشابهة من أعداد السجناء في إيطاليا التي تعتبر سجونها ثاني أكثر السجون الأوروبية اكتظاظاً.! إن الغربيين يبتكرون أفكارًا مذهلة، لتشجيع شعوبهم على القراءة التي تزيد الوعي، وتنمي الإدراك، وتساهم في رقي الحضارة وتَقدم المجتمع، ولا أعلم متى ننشغل بمثل هذه الأفكار التي تساهم في نهضة الأمة؟ ومتى نؤمن بأن القراءة سبيل أكيد لانتشالنا من وحل التبعية والضعف والضياع.؟!

وكم سعدت حينما قرأت عن محاولة عربية في تونس أرادت أن تحاكي التجربة الإيطالية لزيادة المعرفة، وتنقية الوعي ومكافحة التطرف داخل السجون.. حيث منحت كل سجين كتابًا يقرأه وأطلقت حملة على شبكات التواصل الاجتماعي تحت شعار "من حق السجين أن يقرأ" تهدف إلى جمع آلاف الكتب وتوزيعها على كافة السجون التونسية، لحث المساجين على المطالعة وتنمية ملكة القراءة، وقد وجدت الدعوة مؤازرة شعبية، وتحولت إلى حملة وطنية أيدتها منظمات المجتمع المدني والأحزاب السياسية، وتم جمع أكثر من 10 آلاف كتاب.

وإذا كان الغرب يرغب في تثقيف المسجونين وتشجيعهم على القراءة حتى يلين سلوكهم وتتهذب مداركهم، فإن سجوننا في بعض فتراتنا وعقودنا المظلمة، كانت تحرمها وتجرمها فيا ويل معتقل أو مسجون يضبط في خبائه كتاب.

ولعلي أتذكر ما قرأته عن الصحفي الكبير الأستاذ (جمال بدوي) حينما كان معتقلاً في مطلع شبابه في الحقبة الناصرية المشؤومة، حيث روى أن المعتقلين كانوا ممنوعين من القراءة أو الكتابة ولا يجرؤون على شيء منها إطلاقًا، ومن يضبط لديه أي مكتوب يعاقب بشدة يقول:

رغم أنني لم أكن صحفيًا، كنت طالبًا بالثانوي آنذاك، ودفعني حبي للقراءة أن أبحث عن أي شيء مكتوب حتى ولو على الجدران حتى أقرأه، للدرجة التي جعلتني أجمع قصاصات من الصحف، كانو يبيعون لنا فيها أقراص الطعمية داخل المعتقل، و أذكر أنني جمعت كمية كبيرة من هذه القصاصات الملوثة بالزيت والتراب، وكنت أجمعها فيما يشبه بجريدة صغيرة، ونظل نتناوبها في القراءة ليلا حتى لا يرانا أحد المسئولين عن السجن، هذه القصاصات من ورق الصحف كانت تمثل لنا كنز المعرفة، كنا نعرف منها أشياء كثيرة ومما يثير العجب أنني عرفت بموت الفنان (أنور وجدي) من تجميع هذه القصاصات، فقد قرأت سطورًا مبتورة لمقال كتبه المرحوم أستاذنا (على أمين)، ينعي فيه الفنان الراحل، وما زالت كلماته أحفظها حتى هذه اللحظة.. حيث كتب يقول : عاش شبابه كي يشتري المجد، ثم قال البائع لا يكفي، ثم عاد فلم يجد البائع ولم يجد الدكان، ولا تتخيل كيف كنا نقرأ الجريدة الصغيرة والبسيطة، فرغم ما بها من زيت ورائحة الطعمية وملوثة بالأتربة، إلا أننا كنا ننتظر قدوم الليل ونحاول قراءتها حتى تحت البطانية خوفًا من بطش رجال السجن."

ولعل الدكتور (نجيب الكيلاني) هو أروع من سجل لمحنة القراءة خلف القضبان، ففي مذكراته الآسرة يقول : "كانت ليالي الشتاء باردة طويلة، وكانت مما في جعبتنا من أحاديث، وفكرنا أن نستغل هذه الساعات في القراءة، لكن كيف ؟ إن الزنزانة غارقة في ظلام دامس، ويمنع منعًا باتًا إضاءة أي نوع من النار أو النور داخلها، واهتدينا إلى حيلة بدائية قررنا تنفيذها رغم المخاطر، فكمية قليلة من زيت الطعام بها فتيل من القطن أو الخيوط السميكة، تستطيع أن توفر لنا شعلة صغيرة تشبه الشمعة، ونستطيع أن نقرأ في ضوئها، وقمنا بتنفيذ المشروع وهو لا يحتاج إلا إلى غطاء علبة ورنيش "طلاء الأحذية" صغيرة نملؤها ببضع سنتيمترات مكعبة من الزيت ثم نشعل الفتيل، ولكي لا يرانا خفر الليل في الفناء الخارجي، كان لا بد أن نسد النافذة تماماً بعدد من ستراتنا الزرقاء حتى لا يظهر النور، ومع ذلك فقد

سمعنا حارث الليل يصرخ في الفناء: اطفي النور يا دور2 ، آه إذن لا فائدة، إذا تجاهلنا الأوامر، فإن ذلك سوف يجر علينا التأديب والجلد، لهذا أطفأنا النور واستجبنا للأمر ، وكان رأيي أن يقوم الإخوة المسئولين عنا بالتفاهم مع العسكر حول هذا الموضوع ، ولا بأس من أن ندع لهم مبلغا شهريًا من المال، حتى يغمضوا أعينهم عن هذه المخالفة، وقد نجحت الخطة، واستطعنا بذلك أن نستفيد من الساعات الطويلة المهدورة، التي تشكل جزءًا من أعمارنا، وقد اندمجت في هذه الفترة في قراءة تفسير ابن كثير، وهو من أكثر التفاسير رواجًا بين الإخوان المسلمين في تلك الفترة، لقد حفظت الكثير من القرآن الكريم، وكنت أعيد قراءته من وقت لآخر، هذا حسن، لكنه لابد أن أركز بعد ذلك في فهم الآيات ومعانيها وأحكامها، فالقرآن لا شك هو المدرسة الحقيقة للمسلم، وهو النصوص التي نريد تطبيقها في واقع الحياة، ولا يمكن أن يكتسب المؤمن صفة الداعية الحقيقي، إلا إذا عرف تفسير القرآن، فهو المؤهل الأساسي له، كنت أقرأ التفسير ليلا ونهارًا بنهم وشغف، وكنت أقلق لمجرد التفكير في أنه ربما تواجهني عقبة أو أصاب بمرض أو أودع الحياة، قبل أن أنتهي من التفسير.! لقد بدا ذلك في هذه الفترة أمرًا بالغ الأهمية أكثر من أي شيء آخر في الحياة والحمد لله فقد استطعت أن أنجز ذلك في حوالي ستة شهور وكنت في غاية السعادة.!"

وهكذا تستطيع القراءة أن تنقل السجين من عالم الكبت والقهر الذي يعيشه، إلى عالم آخر يمتلئ بالسعادة والأمل والرغبة في العيش، لا لكي يخرج إلى دنيا الناس ويتنسم عبير الحرية، وإنما لكي يستطيع من خلالها أن يكمل قراءة كتاب تهيم به نفسه.! إن ملكة القراءة متفشية في المجتمعات الغربية، وهم يريدون للسجناء ألا تفوتهم هذه المتعة الإنسانية، والضرورة الحياتية التي تحيي العقول وتنير الأذهان، لأنهم يدركون أن السجن الحقيقي في الحياة حينما يُحرم العقل من نعمة الوعي والتفكير والنضج والبصيرة.! ولعله السجن الكبير الذي يغشى عالمنا العربي والإسلامي وللأسف.

الأدب و المواجهة!

هل تعلم أن إسرائيل تقوم بمنهجية مدروسة، في تخريج أجيال حاقدة ساخطة على العرب والمسلمين؟! هل تعلم أن هذه المنهجية المدروسة، تتخذ من الأدب أقوى أسلحتها لإرساء هذه الصورة، وتشكيل عقول الناشئة عليها؟ حيث يصدرون سلسلة للصغار منذ عام 1950م، تغرس الحقد والكره، وتنمي روح المغامرة العسكرية، وتعزيز العداء للمسلمين، بل ينفتحون بهذه السلسلة على العالم، فيترجمونها إلى خمس لغات أوروبية، ويوزعونها بالمجان على الطفل اليهودي الأوروبي.!

إن إسرائيل تؤمن بالقلم والأدب ودوره الفريد في صياغة العقول وإلهامها ما تريده من غايات، وليس هذا ما تفعله مع الأطفال وحدهم، وإنما هو نفس سياستها مع الكبار، حيث تدرك سحر الأدب في تشكيل عقول الشعوب، ولم تجد مناصًا من ركوبه وامتطائه حتى تجمل باطلها، وإيهام شعوب العالم بحقها المزيف، تأمل ما حدث للكاتب المبدع (عبد المنعم الصاوي) في تلك الحادثة التي يرويها لنا فيقول: (قبل نحو ثلاثين عامًا، أُتيح لي إعادة اكتشاف دور الأدب في الصراع الدولي، وقدرة رواية على أن تفعل في الهند ما لا تستطيع اثنتان وعشرون سفارة عربية، ومكتبان أحدهما لجامعة الدول العربية، كان يترأسه د. كلوفيس مقصود، والآخر لمنظمة التحرير الفلسطينية.

كنتُ في زيارة لإحدى كبرى مزارع البُن في جنوب الهند، حين كلّف صاحب المزرعة الثري، ابنته الشابة بمرافقتي، وزميل صحافي فلسطيني، يحمل الجنسية الأردنية في جولة بالمزرعة، وفي أثناء الجولة سألت الفتاة عن البلاد التي ننتمي إليها، فقال لها صديقي: أنا من فلسطين، فاتّسعت حدقتا الفتاة، وتساءلت بدهشة: أين تقع تلك الفلسطين؟! حار صديقي في الشرح، ورحت أحاول مساعدته، فرسمتُ لها خارطة فوق الرمال، وأشرت إلى موقع فلسطين على الخارطة، وإذا بالفتاة تصرخ: لا.. لعلّك تقصد إسرائيل؟! وعندما سألتها: من

أين سمعت بإسرائيل؟ قالت: قرأتُ رواية ليون أوري، أي (سفر الخروج)، إنها الأكثر مبيعًا في الهند، بيعت منها ملايين النسخ، ثم قرأتُ للكاتب ذاته رواية (وا قدساه)، آنذاك لم تكن لإسرائيل سفارة بالهند، فيما تفسح نيودلهي صدرها لاحتضان مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية، يقضي رجاله معظم وقتهم حول مسبح فندق (أوبروى) بنيودلهي؛ ليكحلوا عيونهم -على حد تعبيرهم- بمشاهد نساء شرق أوروبا اللائي يمضين يومهن بالمسبح، بانتظار عودة أزواجهن (الخبراء الأجانب) من أعمالهم.

(سفر الخروج) للأديب الأمريكي اليهودي (ليون أوري)، فعل لإسرائيل ما لم تفعله كل سفارات العرب، وكل مكاتب الجامعة العربية، وكل مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية.)[1]
بل بلغ من فرط اهتمامهم بالأدب أن صاروا يترجمون روايات الأدباء العرب الذين هم أعداؤهم!

يحدثنا (نجيب محفوظ) كيف حرص اليهود على ترجمة أعماله؟ فيقول: (سمعت أن بعض الإسرائيليين اهتموا بأعمالي قبل الصلح.. معظم أعمالي الروائية، ترجمها الإسرائيليون في زمن الحرب، عندما لم تكن هناك أية علاقة تربطنا بهم، ليست أعمالي أنا وحدي، وإنما أعمال أدباء العرب، وما ترجم بعد الصلح لا يقاس بما ترجم قبله، من حيث الكم وحين تم الصلح، جاءتني الكتب المترجمة وبعثوا يحاسبونني)[2]

تأتي هذه العناية، في الوقت الذي أهملنا فيه الأدب، وتراجع الاهتمام بالكتاب والثقافة والمعرفة، وبعد أن كان الأدب هو الرائد الذي يشكل حياتنا الثقافية، وكانت كتبه ومجلاته لها الصدارة في المبيعات، وكان الأدباء هم المثل العليا لدى الشباب، تجردنا عن هذه الغاية لتنشغل الأجيال بالإنترنت وثقافة التيك آوي، وقد كنت تسأل الشاب المصري قديمًا عن

---

[1] – جريدة المدينة السعودية عدد 17760 بتاريخ 1433/1/13هـ
[2] – أنا نجيب محفوظ –إبراهيم عبد العزيز ط مكتبة الأسرة

هوايتك، فيقول: الأدب، وإذا سألته عما يريد لمستقبله؟ فيقول أديبًا، وإذا سألته من تحاكي وتقلد أو من هو مثلك الأعلى الذي يؤثر فيك؟ فيقول لك: العقاد أو الرافعي أو المازني أو الزيات، بل كان الشباب وقتها يقلدون الأدباء في هيأتهم ومشيتهم وطريقة ملابسهم، وكانت المجلات الأدبية، لها الصدارة في التسويق والانتشار، وتبدد كل هذا الماضي بواقع مختلف وغريب وبعيدًا كل البعد عن أي حفاوة بالثقافة والفنون.

إن جوانب القصور والضعف في التيار الإسلامي أتت عليه وهددت مستقبله، خاصة إذا كانت هذه العوامل هي عوامل القوة، والتي يمتلكها المناوئون بكل قوة وجدارة، حيث تجدهم متفوقون في الإعلام، ويمتلكون القنوات والإعلاميين، وبرامج التوك شو المؤثرة في الجمهور، كما يملكون الشعراء في الفصحى والعامية، ويملكون الأدباء الذين يكتبون القصص والروايات، ويحتلون المنافذ الفكرية والثقافية، مما حدا بكثير من علماء الدعوة، أن يوصوا شباب الصحوة الإسلامية، باقتحام هذه الميادين والتفوق فيها، لأثرها الفعال على العقول والأذواق، بل تساءل أحد الدعاة مستنكرًا بقوله: (لماذا لا يوجد بين الإسلاميين شاعر مثل عبد الرحمن الأبنودي أو أحمد فؤاد نجم؟ بل بالغ في التعبير عن غضبه بقوله: لماذا لا يوجد بين الإسلاميين امرأة مثل نوال السعداوي.؟)

روايات مؤثرة

لا زلت أذكر رواية (عمالقة الشمال) لأديبنا الكبير الدكتور (نجيب الكيلاني) وكيف استمتعت بها؟ وكيف كان تأثيرها على نفسي ومشاعري عميقًا؟ وجمعتني مناسبة بأحد المعنيين بالدعوة الإسلامية في أفريقيا، والمسؤول بواحدة من كبرى المنظمات الإسلامية، وقلت له: لماذا لا تترجمون رواية عمالقة الشمال بالإنجليزية، أو اللغة المحلية في نيجيريا حتى يقرأها النيجيريون؟ أنا واثق أنهم لو قرؤوها، فسوف يكون لها تأثيرها البالغ في نفوسهم،

وسيكون لها مردودها الهائل في كشف طبيعة الإسلام، وإيضاح روحه السمحة، والتبصير بالأخطار التي تحيق بهذا البلد المسلم.

ولكن يبدو أن الوعي بقيمة الأدب وتأثير الرواية، لم يأخذ مكانته في كثير من الأفهام والعقول بعد! وعندي أن رواية تتحدث عن سمت الإسلام، وتعرض أخلاقه في أسلوب قصصي ممتع، قد تؤتي ثمارها أكثر من كتاب بحثي يتحدث عن ذات الموضوع.!

نشرت صحيفة عكاظ خبرًا تحت عنوان: (نشرت روايتي فأسلم 30 ألف قارئ)، حيث كشف رئيس قسم حوار الأديان في الجمعية الدعوية الكندية، وطبيب العيون الدكتور (عبد الله براون) عن قرب الانتهاء من ترجمة مؤلفاته إلى اللغة العربية، بعد أن سجلت مبيعات قياسية، وحققت انتشارًا واسعًا في الأوساط الأمريكية والكندية.

وكانت رواية (الصحيفة الثامنة) والتي أهدى منها نسخة للرئيس الأمريكي الأسبق (باراك أوباما) قد تصدرت مبيعات الكتب حسب الإحصائيات الرسمية، في السنوات الماضية، وتم تداولها في أغلب وأشهر المكتبات الالكترونية، وأفاد الدكتور (براون) أن الرواية تضمنت قصصًا متسلسلة، توضح الصورة الحقيقية للإسلام والمسلمين، ونقاط التفاهم والاختلاف بين الإسلام والأديان الأخرى، وأنه بمجرد انتهاء القارئ من قراءة الرواية، يكون قد كون صورة حسنة عن الدين الإسلامي، وأوضح براون: أن أكثر من 30 ألف قارئ للرواية، وحسب الإحصائيات الرسمية، قد أعلنوا إسلامهم بعد قراءتهم للرواية.

وذكر: أن مؤلفاته نالت إعجاب عددٍ من العلماء والمشايخ في المملكة العربية السعودية، وأن هذا هو ما دفعه إلى ترجمتها للغة العربية، حتى تصبح متاحة للجميع.

ولا شك أن العدد ضخم وكبير، وهو نفس العدد الذي حققه فيلم الرسالة لمصطفى العقاد حينما عرض بدور السينما الأمريكية، والحق أنه لا يعرف روائي أثر في العقلية الأوروبية في

العصر الحديث كما أثر (براون) الذي أعلن إسلامه.. ولعل إسلامه هو السبب في عدم شهرته، وحديث الإعلام عنه، فرجل يؤثر في هذا العدد الكبير شخص لا يستهان به، لقد أضاف للإسلام وخدمه، وفعل ما لم يستطع فعله أساطين العلماء ونوابغ الدعاة، لأنه اتخذ من الأدب الروائي طريقًا للتأثير فيمن يؤمنون برسالة الأدب في نهضة الشعوب.

الفرنسيون يعظمون الرواية ويحتفون بها، لأنها تصور مجتمعهم، خاصة إذا جسدت مشكلاته، وصورت أنين طبقاته المعذبة، جاء في صحيفة الشرق الأوسط بتاريخ 7/ 11/ 2013م، خبرًا تحت عنوان: (بمناسبة مرور 150 عامًا على صدور رائعة (فيكتور هوغو) 200 فرنسي يتناوبون ليومين على تلاوة (البؤساء) احتفالًا بالذكرى 150 لصدور رواية البؤساء للكاتب والشاعر الفرنسي (فيكتور هوغو) (1802 – 1885)، سيقوم 200 رجل وامرأة بتلاوة متصلة لنص الرواية كاملًا، بصوت عال، في واحد من أقدم المباني المهجورة بمدينة تولوز، جنوب البلاد.

تهدف الاحتفالية، إلى التذكير براهنية الرواية، التي تبدو كأنها تصلح للقراءة في كل زمن، لا سيما العصر الحالي الذي ينتشر فيه البؤس في الأوساط الفقيرة، وتتصاعد فيه معدلات الجريمة، وتتكرر الأسئلة التي طرحها المؤلف حول شرعية الحكام والقوانين ومفهوم العدالة، وقد جرى اختيار مكان العرض في مبنى (لا شابيل) المتداعي نظرًا لأنه ينسجم مع أجواء الرواية، ويجمع تحت سقفه المشردين البؤساء الذين لا يجدون سقفًا يبيتون تحته، ودعا المنظمون الموسيقيون والرسامون والراقصون والممثلون والحواة وحتى الطباخين، سواء أكانوا محترفين أو هواة، لمرافقة التلاوة، بما يتناسب وأحداث الرواية الخالدة، على مدار 3 أيام.!

وحفاوة فرنسا بالأدب والأدباء كبيرة وقديمة، فحينما بلغ هوجو الثمانين من عمره، احتفلت فرنسا بعيد ميلاده احتفالا قوميًا هائلًا، وأقيم قوس للنصر في الشارع الذي يقع فيه البيت،

وراحت الوفود الشعبية تعبر القوس أمام الكاتب الكبير لتحيته، وهو يقف بشرفة مسكنه، تغرورق عيناه بالدمع، وهو يرى أكثر من نصف مليون فرنسي، يعبرون أمام بيته تحية له، في حين انهالت على البيت الصغير، باقات الزهور من كل أنحاء فرنسا، وصدر قرار بإعفاء جميع تلاميذ المدارس والمعاهد من العقوبات المدرسية الموقعة عليهم، ابتهاجًا بهذه المناسبة العظيمة.!

وزار رئيس مجلس الشيوخ، الأديب الكبير في بيته مهنئًا بعيده الثمانين، ثم دعاه لحضور جلسة خاصة ستعقد لتكريمه في البرلمان بعد أسبوع، وحين دخل الشاعر العظيم قاعة المجلس، وقف جميع الأعضاء يصفقون بحرارة شديدة تحية للأديب الكبير الذي أسموه شاعر القرن التاسع عشر وضميره وقلبه! وبعد بضعة شهور من هذه المناسبة، صدر قرار من بلدية باريس، بتغيير اسم هذا الشارع من إيلو إلى شارع فيكتور هوجو!

وقبل هذه المناسبة ببضع سنوات شهدت باريس مناسبة أخرى أكثر أهمية، وهي عودة الشاعر العظيم إلى بلاده عام 1869م بعد 19 عامًا في المنفى، ممنوعًا من العودة إلى بلده، بسبب أفكاره الجمهورية، ومشاركته في الثورة الشعبية ضد الإمبراطور نابليون الثالث، ثم استسلم الإمبراطور أخيرًا واضطر لإعلان الجمهورية، فغادر هوجو بروكسل بالقطار يوم 4 سبتمبر 1869، وبلغ القطار محطة الشمال بباريس مساء نفس اليوم، فما إن وصلها حتى أحاط به طوفان من البشر، اضطر هوجو لأن يخطب فيهم أربع مرات، رادًا تحيتهم له، وتمتم والدموع تلمع في عينيه (لكم يحبني هذا الشعب وأحبه)، وقال لمن استقبلوه بهذا الطوفان من الحب والتكريم: لقد رددتم لي في ساعة واحدة، ثمن عشرين عامًا عشتها في المنفى! وحملته الجماهير على الأعناق، تريد أن تذهب به إلى مقر بلدية باريس، فرفض قائلًا: كلا أيها الأصدقاء، فإني لم أحضر لزعزعة مركز الجمهورية المؤقتة.. وإنما لأؤيدها!)[1]

[1] – ساعات من العمر لعبد الوهاب مطاوع

ربما تتعجب من تأثر الشعوب الأوروبية بالأدب والأدباء، الذين يتمكنون من تغيير الحياة السياسية والاجتماعية بأفكارهم ورواياتهم، التي تعد وقودًا دافعا للثورات التي حدثت فيها، وكذلك إذا أردت أن تعرف لماذا لا تتأثر شعوبنا بما تتأثر به أوروبا وشعوبها؟ ولماذا لا يكون للأدب وأهله في حياتها مكانة أو نفوذ، بحيث يستطيع أن يوجه ويوقظ وينهض.. فعلينا أن نوقن أن هناك فرقًا إما في الشعوب أو في الأدباء، وبعضهم يري أن الفرق في الأدباء لا في الشعوب، لأن الأديب هناك يقضي عمره في نضال وجهاد وعراك مع الدنيا والناس، ومع الأوهام والأباطيل والأضاليل، (وما شرق مشرق، أو غرب مغرب في دعوة وطنية أو اجتماعية، إلا على هدى من وحي الأديب، ولا استبسل جبان أو استقبل شجاع، إلا بتحريض من عبارة فاه بها شاعر أو كاتب أو خطيب)

(كما أن الكاتب الأوروبي لا ينشئ قصة، إلا بعد أن يدرس آراء المفكرين في القديم والحديث، وبعد أن ينظر في مشكلات عصره نظرة الباحث المتعمق، فيعرف ما يحيط به من المعضلات الذوقية والاجتماعية والاقتصادية، فيكون لقصته مغزى مأخوذًا من أزمات النفوس والقلوب)[1]

العار الثقافي

لا شك أنني أعتبر ما يحدث اليوم وما يصيب كثير من فتياننا وفتياتنا، من قبيل (العار الثقافي) الذي لا يغتفر، والذي يجب أن نستفيق منه، ونعي خطورته.

بل أكاد أعده من باب الغزو الفكري، الذي يريد أن يصرفنا عن تراثنا وفكرنا الذي أضاء مجاهل الظلام في جنبات الدنيا، ونور العقول، وصنع أعظم حضارة في لعالم، وأخرج أسمى رجال عرفتهم البشرية.

[1] – راجع زكي مبارك لأنور الجندي

إنها حقائق وتاريخ ولا ينكرها إلا حاقد أو حاسد.

يعز علي كثيرًا أن أرى موجات جارفة من الشباب والشابات، يقبلن بشغف كبير، ورغبة ملحة، وشوق عارم، وهيام لا حدود له، على قراءة الروايات وقصص الخيال، بينما يتركون تراث أمتهم العظيم، الذي يفوح بالعلم، ويقطر بالثقافة والمعرفة، والفهم والوعي والنور والخبرة والدراسة والإفادة القيمة.

نعم هذا ما يحدث اليوم، يجتمع الشباب على قراءة الروايات، ويتسابقن في اقتنائها ويُعد المثقف الحقيقي من قرأ منها أكبر كم وأكثر عددًا.. ويأتي أحدهم في معرض الكتاب ليحشد ماله فيشتري كثيرا من هذه الروايات، ولا تجد في عشرات ما جمع كتابًا يوحد الله، أو يعرف بدينه أو يروي قصص قرآنه.

ربما يشعر الشاب بجمال القصة التي تخلق له عالمًا مثاليًا يعيش فيه، تمامًا كما يشاهد فيلمًا أو حلقة تلفزيونية، لكن هل استفاد علما؟ هل ارتقى سلوكا؟ هل تهذب طباعًا؟

لا تظن أني أجهل دور الرواية في توجيه المجتمع وترشيده، وأهميتها في التأصيل للسلوك والقيم، لكنها أبدًا لا يمكن أن تكون سبيلا وحيدًا لهذا الأمر، حينما يكون بين أيدينا تراث ضخم عظيم مليء بالمدهشات والمعارف التي تدهش الألباب وتسعد العقول ولا تقدر بثمن، والتي تصوغ النفس والروح على أفضل ما يراد لها من مدارج الكمال.

شين كبير أن أربي أبنائي على حب الروايات وقراءتها وحفظها وتمثيلها، والقرآن بين أيدينا مهجور لا يجد من يقرأه، ويعتبر بآياته، وتدرس قصصه وأحداثه!

وهؤلاء الذين يقرؤون الروايات ويحفظون تفاصيلها، ويتصورون في خيالهم شخصياتها، لو أتيت لتسألهم عن القرآن الكريم، وما فيه من قصص الصالحين والأنبياء، أعتقد أنهم لن يجيبوك بشيء، أو أن بعضهم لن يجيبك بشيء، لأن بعيدون عن عالم القرآن.

أرى كثيرا من الشباب يتسابقون لقراءة رواية معنية من روايات (أحمد خالد توفيق) ثم يجتمعون لمناقشتها وتأمل ملامح الجمال والعبقرية في سطورها، ولو سألتهم عن عنوان لكتاب من كتب القصص القرآني، فلن ينطقوا بما يفيد.

كل هذه المشاعر بالضياع والتفريط والعار، أحسست بها وأنا أقرأ لكاتبة في إحدى الصحف مقالا تحت عنوان (اقرأ روايات) وهي تقول: "إن الرواية هي التي تجعل الإنسان إنسانًا، وتخلق فيه المحبة والجرأة والاستيعاب ورعايته للبشر، ثم تقول: "في الصيف الماضي كنت أتناقش مع ولدي في مسألة ما، وكان رأيه قاطعاً، وكان متعجباً من أنني لا أشاركه الرأي. نظرت إليه وابتسمت، قلت له: يا ولدي اقرأ روايات، شعرت في تلك اللحظة أنني لن أستطيع بحب الأم أن أشرح له لماذا أتخذ هذا الموقف أو هذا الرأي، لكن الروايات قادرة على أن تدخله في قلوب الناس وأفكارهم، وهم يستطيعون - أبطال الروايات - أن يشرحوا له ما عجزت أنا عن إيصاله له."

وأنا طبعًا لا أنكر الدعوة لقراءة الرواية، ولا أنكر دور الرواية، ولكني يحز في نفسي أن نقيم لها كل هذه الهالة وهذا التعظيم، ونترك من خلفنا ذلك التراث الفخم مهجورًا يعلوه التراب وهو الذي يمكن له أن يلهمنا كل ما نريد من الرواية وأكثر، وكم كنت أتمنى لهذه المرأة، أن تنصح ولدها بقراءة القرآن وتفاسيره ومعايشة قصصه، وتأمل ما فيها من غاية وتحد وإعراض وانتقام وحلم وصبر وعطاء وفدائية وعبادة وقناعة وسمو ورفعة.

يتعاظم ألم النفس وأنا أرى شبابًا يعرفون بالتفصيل أحداث ثلاثية نجيب محفوظ وروايات دوستويفسكي، ولا يقتنون كتابًا واحدًا في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم! ويعرفون عنه كيف دعا وكيف ثار وكيف حارب؟!

يسوؤني كثيرًا أن نحفظ أبطال القصص والروايات، ونعرف تفاصيل حياتهم، بينما لا نعرف شيئا عن العشرة المبشرين بالجنة، ولا ندرك شيئا من تفاصيل حياتهم التي أهلتهم لهذه البشرى!

بل إنني أقول: إن أي بيت تعلو فيه الروايات على كتب الدين، لهو بيت يفرط أصحابه في هويتهم وثقافتهم، ولا يدركون معدن الثقافة الجادة، التي تحقق لهم السعادة الحقيقية والمعرفة المرجوة.

ومهما كانت الرواية إنسانية راقية سامية، فإنها قد لا تُلهم قارئها أي شيء من معاني الإنسانية، بقدر ما يلهم الدين والتراث الإسلامي الكبير، لأنها لحظات تشويقية وليست قيم تتلى وعقيدة تدرس وسلوكيات تحتم الالتزام بها كما هي للتراث الديني.. ولعله الأمر الذي أعلنته الكاتبة نفسها في نفس المقال حينما قالت: " إنها تشعر بالغضب والحزن حينما ترى أشخاصًا يقرؤون كثيرًا جدًا، ويحفظون أسماء الشخصيات، وجملا كاملة من روايات قرؤوها، لكن تصرفاتهم لا تشي بذلك أبدًا إنها شخصيات تقرأ وتعرف، لكن التأثير لا يتجاوز الدماغ ولا يصل إلى القلب"!

ومن المضحك أننا اليوم نرى على رأس هرم الرواية وقمتها أديب يسرق الروايات وينسبها لنفسه، ونراه يزيف حقائق التاريخ ويشوه أبطاله، حتى يكون حديث المدينة وضيف الفضائيات، ونجم الصحف والمجلات، فأي رقي هذا وأي سمو لأرباب الروايات؟!

الأدباء الكبار أنفسهم يؤكدون أن الذي صنع منهم أدباء وجعل منهم كتاب مجيدون، وبذر في قرائحهم بذور الخيال، إنما هو القرآن الكريم وأدبه وآياته، وقصصه الرائعة.

أيها الشباب التفتوا لتراثكم وجماله وروعته ومعارفه، وآمنوا وثقوا أنكم ستجدون فيه المتعة والتشويق والجمال وصور الكمال، بل ستجدون فيه المعرفة والثقافة، التي ترفع الإنسان، وترتقي بالخلق، وتسمو بالنفس.

وختاما أجدد التنويه بأنني لا أحارب الرواية، ولا أحارب أدب الرواية، وأنني مؤمن بها كامل الإيمان في توجيه العقول لو كانت هادفة بناءة، ولكني مفزوع أن تسيطر على فكرنا ومزاجنا وهوانا، بينما تراثنا مهمل مهجور.!

اقرأ لخصومك

بعض الحرفيين النصوصيين من المتدينين يعترض حينما يجدني استشهد فيما أكتب بأحد مفكري وأدباء التنوير، من العلمانيين والشيوعيين وغير الملتزمين، أو الذين كان لهم موقفًا عدائيًا أو رؤية مناهضة أو ذوقًا مختلفًا للتوجه الديني المحافظ.

والحق أنني أعتمد على هؤلاء الناس كثيرًا في العديد من كتاباتي الأدبية والإنسانية، لأنهم ضربوا فيها بسهم وافر، ولهم فيها آثار معتبرة، وجاءت فترة من الزمان كانت لهم دفة التوجيه والتأثير الفكري والأدبي والثقافي في مصر.

وبعض هؤلاء الحرفيين حينما يراني أكتب اسم طه حسين أو توفيق الحكيم، يزوم بشفتيه ويولي بعينيه ويقول متهكمًا: أنت تقرأ لتوفيق الحكيم وطه حسين؟!

ولا أعرف بأي طريقة يفكر هؤلاء؟!

فهل يصح لنا أن نقول: إنه لا يجب التدفئة بالنار، لأنها كانت تُعبد من دون الله؟!

هل معنى إذا كان جاري كافر، أنني كافر مثله عابد للأوثان؟

إن العلاقة بيني وبينه لا تعدوا إلا الجيرة فقط، كذلك ما الذي يمنع أن آخذ ما يقدمه الكاتب من الخير، وأترك ما يقدمه من السوء؟!

بعض هؤلاء الناس الحرفيين يحتاجون أن ينشطوا عقولهم وأفهامهم وفق روح الإسلام، وأن يستفيقوا من هذه الجهالة وهذا العقم الذي يقبعون فيه.

وهنا نُحب أن نقول لهم: إن هذا الانغلاق ليس من روح الإسلام ولا طبيعته، وإنما هي جهالة، تقوم على أهواء أناس لا بصر لهم وفقه ولا وعي، فقد جاء في الحديث: " الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها"[1]

وقال علي ﷺ: «العلم ضالة المؤمن فخذوه ولو من أيدي المشركين ولا يأنف أحدكم أن يأخذ الحكمة ممن سمعها منه»، وعنه أيضًا أنه قال: «الحكمة ضالة المؤمن يطلبها ولو في أيدي الشرط"[2] وهو ما فعله المسلمون حينما تشربوا كتب السابقين من الأمم التي كانت على غير ملتهم واستفادوا منها وأقاموا بها حضارة عظيمة.

ونبينا الكريم صلى الله عليه وسلم نفسه، لم يجد حرجًا في تعليم أبناء المسلمين على يد الكفار فداء لهم من الأسر.

وهو كذلك يقول: "أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد بن ربيعة: ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل شيء لا محالة زائل"

وهؤلاء الناس وإن كانت لهم أمور لا تساند الحق في كثير من أفكارهم، إلا أنهم ضربوا بأقلامهم في ميدان الإنسانيات والأدب الرصين، بقدر يبهر العقول، فلماذا نكفر بكل خيرهم لبعض أفكارهم؟!

---

[1] – ضعفه الألباني

[2] – جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر

ليس هذا ما علمنا إياه الإسلام، وليس هذا سلوك السلف الصالحين، فرجل كسلامة موسى لم يكن مسلما، وكانت له ميول اشتراكية تغريبية، وكان يقول بكثير من الأفكار التي ربما تخالف ديننا، ونحن ضده فيها، لكن الرجل من جهة أخرى، كانت له أطروحات وأفكار جيدة في التطوير والتقدم والنمو والحضارة.. فما يمنع أن أستفيد منه وأقتبس من كلامه؟

ومن قال: إنني حينما أقتبس من كلامه، أنني صرت مثله على غير ملة الإسلام، أو موافقًا له في كل ما يقول؟!

ليس هذا الحكم من العدل والانصاف.

ولك أن تتخيل أن هذه العقول الضعيفة، ليست وليدة اليوم، وإنما هي من قديم، حيث تدهش حينما ترى واحدًا كالإمام الغزالي المتوفي عام 505 هـ، يُعاني من هذا الصنف من العقول والأفهام، حيث يقول في المنقذ من الضلال:

"إذ ظنت طائفة من الضعفاء أن ذلك الكلام إذا كان مدوناً في كتبهم، وممزوجاً بباطلهم، ينبغي أن يهجر ولا يذكر، بل ينكر على كل من يذكره إذ لم يسمعوه أولاً منهم، فسبق إلى عقولهم الضعيفة أنه باطل، لأن قائله مبطل، كالذي يسمع من النصراني قوله: " لا إله إلا الله، عيسى رسول الله " فينكره ويقول: " هذا كلام النصارى "، ولا يتوقف ربما يتأمل أن النصراني كافر باعتبار هذا القول، أو باعتبار إنكاره نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، فإن لم يكن كافراً إلا باعتبار إنكاره، ينبغي أن يخالف في غير ما هو به كافر مما هو حق في نفسه، وإن كان أيضاً حقاً عنده، وهذه عادة ضعفاء العقول، يعرفون الحق بالرجال، لا الرجال بالحق. والعاقل يقتدي بقول أمير المؤمنين " علي بن أبي طالب " رضي الله عنه، حيث قال: لا تعرف الحق بالرجال بل اعرف الحق تعرف أهله"

ثم تأتي شبه أخرى يثيرونك بها، حينما تردهم إلى الحق فيقولون: إن من يقرأ هذه الكتب ولهؤلاء القوم، قد يتأثر بكل أقوالهم مع مرور الوقت، وهو قول باطل، فأعلام الإسلام كابن تيمية والغزالي شربوا مناهج الفلاسفة، واستوعبوا مقاصدها، حتى يضربوهم بمعاولهم في علومهم، وينصروا عليها لواء الدين، وشريعة الله، ولم يرد أبدًا أنهم تأثروا وانحرفوا، وابن تيمية على وجه الخصوص كان إمام السلفية ومجدد الدين.!

فالراسخون في الإيمان والعلم لهم أن يقرؤوا ويقتبسوا ما يشاؤون لأن علمهم وفهمهم سيحميهم، يقول الدكتور القرضاوي: "يستطيع المسلم الحق أن يقتبس ما يراه حقا من المنهج الشكي لديكارت، ومن مثالية هيجل، من مادية ماركس، ومن وضعية كونت، ومن نشوئية دارون، ومن تحليل فرويد، ومن مجتمعية دوركايم، ومن واجبية كانت، ومن تطويرية سبنسر، ومن حدسية برغسون، ومن برغماتية جيمس، ومن عقلانية راسل، ومن تشاؤمية شبنجلر، ومن تفاؤلية توينبي، ومن وجودية سارتر، يأخذ من هؤلاء وغيرهم ما يلائمه، ويدع مالا يلائمه"

كنت قديما أتخذ موقفا سلبيا أمام نوعية معينة من الكتب، وأقف أمامها مهما وقفت، فلا أجد رغبة في اقتنائها والحرص عليها، إنني أعتبر مما حباني الله به من النعمة والفضل، أنني تغلبت على بعض مشكلاتي النفسية، وصرت أستطيع القراءة لمن أبغضهم ومن يختلفون معي فكريًا، فقد كنت في عهد الصبا آنف أن أقرأ لأي كاتب أو مؤلف لا أؤمن به ولا أتوافق مع فكره، لكنني مع مرور الزمن، صارت لدي المقدرة أن أفصل بين عواطفي وأهوائي وبين حبي للقراءة والمعرفة والاستفادة من الثقافة، أيا ما كان منبعها، بل والتلذذ بها كتب هؤلاء من عيون الإبداع ممن أخالفهم أو أبغض أفكارهم.

أي أنني صرت والحمد لله من المنصفين.

و أول من تستحق الاعتذار مني هي المرأة، فقد كنت في شبابي لا يمكن أبدا أن أقرأ لامرأة، ولا أعرف لماذا هذه العنصرية ومن أين جاءني هذا التعالي؟ لكنني بعد ذلك قرأت لهن لأمينة السعيد، ومها عبد الفتاح وصافيناز كاظم وسكينة فؤاد وسناء البيسي، حتى الكاتبة نوال السعداوي كنت أقرأ لها ولا أجد غضاضة.

كنت دائما أتمثل نصيحة الشيخ محمد جميل غازي حينما قال لأحد تلاميذه: اقرأ كل شيء وافهم كل شيء، ولا تفتي في أي شيء.!

كانت هناك فيما سبق حالة واحدة أستطيع فيها قراءة من أبغضهم وأبعض توجهاتهم، وهي حينما أقرأ كتبهم لأستخرج منها مساوئهم لأنقدهم فيها، وأعدها عليهم، وأشنع بها فيما أكتب وأخطب وأحاضر.

كنت في فوعة الصبا لا يمكن أبدًا أن أصدق لو قال لي أحدهم: إنك ستقرأ لعلماني أو شيوعي أو ملحد، كنت وقتها أعتبر هذا جريمة كبرى وذنبا لا يغتفر، لكنني تخطيت ذلك الانغلاق كله، وعبرت حدوده لأفاق أرحب وأوسع.!

لقد أعجب طه حسين بأحمد زكي باشا وكان تطربه محاضراته في الجامعة المصرية حين انتسب إليها طالبا في صفوفها، كان يعجبه كثيرًا ما كان يسمعه منه، وكان كان في هذا الوقت ذلك الأزهري الذي لا يعرف إلا الصرف والنحو والتوحيد والمنطق والفقه والأصول، وشاء الله أن يلتقي بزكي باشا بعد افتتاح الجامعة بأيام، فانصرف عنه كارهًا له مبغضًا لحضرته، وذكر غلامه الأسود الذي كان يصحب طه ويدخل معه قاعة الدروس حينما منعه أحمد زكي باشا، فلما حدثه طه حسين قال له زكي باشا: وماذا تريد من استماع العلم إذا كان الله لم يرد لك أن تسمعه وحدك.!

وهنا قال طه: "هنالك هززت له كتفي، وخرجت من غرفته"

ثم يقول طه وهنا الشاهد والإشارة إلى ما في مقالنا: "كنت منذ ذلك اليوم أسمع لدروس هذا الرجل راضيًا عنها وكارهًا لصاحبها "

لقد تعلمت من العقاد الذي كان يقرأ للجميع ولكل الأصناف حتى التافهين كان يقرأ لهم وكان رده حينما سئل عن ذلك: لأعلم كيف يكتب ويفكر التافهون؟

لكنني والحق يقال، يمكن أن أقرأ لمن أبغضهم لكنني لا يمكن أبدأ أن أقرأ للتافهين فوقتي وجهدي وعيني لا يطيقون ذلك أبدًا.

الجمال الذي فقدناه

مما لا شك فيه أن أكثر ما حرم منه هذا الجيل هو المجلات والصحف الثقافية الأصيلة التي كانت تقدم الثقافة المفيدة والأدب الرفيع، والمعرفة الهادفة المستنيرة.

وفي التقليب في حياة الأدباء والعلماء الكبار من الجيل الماضي، نجد أن الصحف لديهم كانت من أهم المصادر التي يستقون منها ثقافتهم تمامًا كالكتب، إن لم تكن أهم وأفضل، وعلى قدر قيمة الكتاب، إلا أن الصحيفة كانت تحمل مذاقا خاصا في الإقبال عليها والتهام ما فيها، بل كانت تصلهم بالحياة الفكرية وكل جديد يطرح فيها.

أذكر مرة أن سيدي العلامة الدكتور محمود عمارة، كان يتابعني بالكتب والرسائل العلمية التي أقرأها، ولكنه في إحدى المرات أعطاني رزمة كبيرة من صحيفة رابطة العالم الإسلامي، والتي تضم أكثر من 30 عددًا، قلت في نفسي ما هذا وماذا أفعل بها هل أقرأ الجرائد وأترك الكتب؟!!

لم أفهم القصد، ولم أقف على القيمة، واستخففت بالعطاء، رغم إيحاءاته لي بأنها قيمة كبيرة، فلما قلبت الصحيفة، وجدتها مصدرًا مهما للثقافة والمعرفة المتنوعة، التي تبهج النفس وتسعد

القلب، بل كانت كالبستان الجميل، الذي يضم أشكالا وأنواعا من الزهور البديعة المختلفة اللون والرائحة.

ولما تعرفت على سيرة شيخنا الدكتور محمود عمارة التي كتبها قبل رحيله، قرأت كيف كانت الصحف الأهرام والرسالة وغيرها من الصحف الأدبية، ذات تأثير بالغ في تكوين ثقافته؟ وقد كان ينتظرها بشغف بالغ وهو فتى يافعًا، وينفرد بها مع نفسه على سطح الدار، يهيم في معارفها ويعيش مع كتابها الكبار كالعقاد والزيات وطه حسين وغيرهم من الأدباء العظام، ناهيك عن المعارك الأدبية، التي كانت تخلق الحماس والشغف بالمتابعة والانتظار الحار، لمن ينتصر من الفريقين على صاحبه.

كانت كل هذه الأجيال ترى الصحف على هذا الاهتمام وترجو منها هذا القصد.!

فالثقافة الدورية من أهم وأبرز ما تتعلق به النفس، وهو ما توفره الصحف والمجلات حينما تنتظرها وتكون معها على موعد لترى ما الجديد الذي ينتظره عقلك وذوقك منها، وعلى رغم ندرة زماننا بمثل هذه الهبات والعطاءات المعرفية، وأسلوب الثقافة الدورية التي تمتع بها الجيل السابق.

إلا أن الحق يقال: إن صحيفة آفاق عربية التي كان يرأس تحريرها الأستاذ الصحفي الكبير القدير بدر محمد بدر، قد عوضت فينا هذا الجانب، وجعلتنا نعيش ما كان يعيشه المحبون للثقافة قديما، فقد كانت الرجل فطنًا حينما نوّع الصحيفة وطعمها بألوان الثقافة المختلفة، وبالفعل وليس هناك تشبيه آخر، فإنك حينما تقرأها تشعر بأنك أمام مائدة كبيرة عليها وفيها كل ما تشتهي من ألوان الطعام المحبب للنفس.

لقد قرأنا عبر هذه الصحيفة لأعلام من الوطنيين، بل قرأنا فيها مجلدات كبيرة ودراسات مهمة، كان ينشرها الأستاذ تباعا متسلسلة، فلم نشعر معها بأي ملل، بل كنا ننتظر صدورها بشغف حتى نستكمل ما كنا وقفنا حياله.

وكذلك نفس الحال حينما كانت تصدر مجلة الأزهر وفي صحبتها كتاب هدية، كنا نتسابق لشرائها، حتى نقتني هذه الكتب والمباحث النادرة التي تفيدنا.

أحيانا تقع في يدي بعض الأعداد القديمة من الصحف القومية الأهرام والجمهورية وأخبار اليوم، فأقلب في صفحاتها الثقافية، لأرى الأسماء الشاهقة التي رحلت عن حياتنا، وكانت تكتب كتابات رائعة ممتعة.

أما مجلة اللواء الإسلامي فحدث ولا حرج، على ما كان فيها علم ومعلومات قيمة أثيرة ما زلت إلى اليوم أدين لها بالكثير والكثير.

بل استطاع فهمي هويدي وعبد الوهاب مطاوع، أن يوجدا في نفوسنا نفس الشغف القديم بالصحف، فقد كان الآلاف ينتظرون مقالاتهم وأطروحاتهم في الاهرام، وخاصة بريد القراء، الذي كان الأستاذ مطاوع يبدع فيه، ويأسر اللب بما يقدم من مشكلات حياتية واقعية، وردود قيمة حكيمة، وفهمي هويدي كنا ننتظر مقاله يوم الثلاثاء، وكأننا ننتظر وجبة لذيذة.

لقد كانت هذه المجلات القديمة ذات هدف عظيم يرمي إلى تثقيف الجيل بالفكر النير والثقافة الأصيلة والعناية بالتراث، وحفظ القيم وتربية الوجدان، ولو بحثت اليوم عن مجلة أو صحيفة فكرية أدبية، فإنك لا تشم منها إلا رائحة واحدة كريهة، وهي العمل على تغريب هذا الجيل، والانحراف به عن فكره وأصالته وهويته، فلا يهمها ثقافة ولا معرفة ولا تذوق

ولا اطلاع، بقدر ما يمهما الانحلال عن القيم والأفكار، التي تخلق اعتزاز القارئ بتراثه وحضارته.

ولعل الفترة التي كانت تمر بها مصر في هذه المرحلة من الاحتلال الانجليزي، هي التي وجهت هذه الصحف هذا التوجيه، ودفعتها على طريق التحدي لهذا العدو المتربص الغادر بلغتها وتراثها وهويتها، لكننا اليوم أحوج والله ما نكون لمثل هذه الصحف والمجلات التي تهذب الجيل، وتوجد فيه معاني الأصالة المفقودة، بل أحوج ما نكون لهذا النوع من الأدباء والحكماء الذين يعرفون ما يجب أن يقدم مما يمتع القراء ويثقف الناشئة، ويمتعها بالنافع والمفيد من تاريخ أمتها وتراثها العريق.

يحكي الدكتور عبد الرحمن بدوي في مذكراته، أن المجلات كان لها النصيب الأكبر في تكوينه الأدبي والثقافي منذ صغره فيقول:

" أخذت سن 1928م في قراءة المجلات الأدبية، وكان شقيقي الأكبر وهبة يأتي بكل ما اشتراه من أعدادها طوال العام الدراسي في الجامعة (كلية الحقوق) لتكون قوتًا للقراءة إبان عطلة الصيف، وهذه المجلات هي : السياسة الاسبوعية والبلاغ الأسبوعي، ومجلة الجديد وصاحبها المرصفي، فكنت أقرأ مقالات لمحمد حسين هيكل باشا وطه حسين وعباس العقاد وعبد القادر المازني"

مثقفون يجهلون دينهم !

أحزن كثيرًا حينما أرى شابًا قارئًا معدوم الثقافة الدينية والمعرفية الإسلامية، تئن نفسي حينما أشاهد فتاة مثقفة تكتب وتقرأ، إلا أنها فقيرة في معرفة دينها، إنهم يقرؤون كثيرًا في الروايات والأشعار والمسرحيات، ويدمنون سطور الخيال، ويعشقون صور الدلالة والإبداع،

ويهيمون مع الفلسفة والنظريات، لكنهم أمام دينهم وتراثه وثقافته في عجمة رهيبة خالية الوفاض.

لا شك أن ضعف الثقافة الدينية أو الأمية الدينية، شيء مفجع في حياتنا وقرائحنا، وشيء تندى له النفوس بالأسى والحزن، فما معنى أن يعكف الشاب أو الشابة على تراث دوستويفسكي وشكسبير، ويتركون تراث ابن القيم وابن تيمية، أو الغزالي وابن حجر العسقلاني؟!

ما معنى أن يعرف القارئ والقارئة كل النظريات، ويتعرفان على كثير من الفلسفات، بينما الدين آخر شيء يلفت انباههما وتميل إلى معرفته رغبتهما، ليظلا بمعزل عن أصوله وثوابته وأركانه والدراية بتعاليمه؟!

تُرى لو جئت بأحد هؤلاء الشباب وسألته عن كيفية الغسل من الجنابة فهل يعرف؟ أو سألته عن العشرة المبشرين بالجنة فهل يعرفهم؟ أو سألته عن مصادر التشريع فهل يجيب بشيء؟! إن الأمر ليس مجرد قلة معرفة بالدين، وإنما قد وصل الأمر لجهل فاضح، وكارثة كبرى تهدد علاقتنا بديننا، إن ضعف الثقافة الدينية مصيبة بكل المقاييس، فهي لا تدفع الجاهلين للفتوى في الدين بغباء وحمق فقط، وإنما تحفزهم على التفريط فيه، وعدم التمسك بقيمه والاستهانة بتراثه، وهي الغاية التي يصبو إليها المتآمرون على حضارتنا ووجودنا.

وقد يوجد هناك من يقرأ في الدين، ويعرف الكثير من العلم فيه، ومع هذا تراه أخبث الناس وأشرهم، ولكن هذا ليس بحجة على الشروع في الجهل بديننا والإيغال في هجره، وربما يكون أمثال هذا حالة فريدة شاذة، إذ نجد الكثيرين من نفعتهم معرفتهم بدينهم، فهذبت أخلاقهم، وجملت طباعهم وأسعدت حياتهم وزكت نفوسهم.

ومن العجيب بل من المفارقات المدهشة، أن الكثيرين من هؤلاء المثقفين، تراهم أمام هذا الجهل الفاضح بدينهم، أول وأجرأ من يفتي في قضاياه، ويجتهد في عقائده وأحكامه، وكأنهم أعلم الناس به، ظنًا منهم أن الدين شيء بسيط وسهل، يمكن فهمه والحديث فيه بمجرد الرأي و(الفهلوة) والذكاء، وأنه ليس (حسبة برمة) حتى يتحرج من الحديث فيه.. وبعضهم يأخذ الروح العامة والنغمة التي يرددها الإعلام، لتكون منطلق الحديث في الدين والفهم الأمثل لأبجدياته.

كما أرى الموهوبين من الشباب والشابات في معروضاتهم في الفيس بوك، ينشرون كل يوم كثيرًا من الإبداع، ولا يوجد بينها شيء من الابداع الديني، أو الأشعار والقصص والمقالات التي تؤصل لقيمه.!

نحن لا نرفض قراءة ما تهواه النفس من الفنون، وعشق دواوين الشعر والمسرحيات، لكننا نرفض بقوة أن يوغل المرء في معرفة كل شيء إلا دينه، الذي هو أعلى المعارف، وتراثه الذي هو أجمل الآداب والعلوم، بل رفض هذا التوجه العام، الذي أوهم المبدعين وأغرى المثقفين، وبين لهم أن المثقف هو من قرأ كل شيء إلا الدين، وأن القراءة في الدين، ربما تكون محصورة مقصورة على الشيوخ فقط، تماما كزيهم الذي لا يرتديه غيرهم.

إن كثيرًا من الأدباء الكبار القدامى، كان يعلنون دومًا أن السبب الأصيل في تكوينهم الأدبي إنما كان يعود لحفظهم للقرآن الكريم الذي أثرى لغتهم وقوم لسانهم، وبعضهم كان ومازال يحفظ تلك المتون التي كان يتلقاها في الكتاتيب، محفورة في ذهنه لا ينساها أبدًا، فأين هم الآن من شباب اليوم، الذي لا يقرب المصحف، ولا يعرف كتب السنن؟!

إن المثقف الحق يدرك دومًا أنه في حاجة ماسة لمعرفة دينه، حتى يعرف كيف يتعامل مع ربه وخالقه؟ فيحوز رضاءه ويتجنب سخطه، ويحالفه توفيقه وسداده.

حكى لي بعض الشباب المثقف، أنه لما تزوج ظل يجامع زوجته عامًا كاملا، فلا يغتسل بعد الجماع إلا إذا أنزل، ظنًا منه أن الإنزال شرط الاغتسال، وأنه ما دام لم ينزل، فلا حاجة إذا للغسل، وكان يذهب مع هذا للصلاة وقراءة القرآن ودخول المساجد، ولم يهتد للحكم إلا حينما سمع بعض الشيوخ مصادفة في التلفاز وهو يتحدث عن هذا الأمر، ذاكرًا قوله صلى الله عليه وسلم: (إذا التقى الختانان وجب الغسل).. لقد حدث هذا مع شاب مثقف ويقرأ، فما بالنا بمن يعزف عن الثقافة جملة ؟!

وإذا كنا اليوم نعاني من التطرف الفكري، والإرهاب العقدي، فذلك يرجع أولا لإهمالنا للمعرفة الدينية، وتغاضينا وإغفالنا عن نشر الثقافة الإسلامية وتسليح الناشئة بها، حتى لا يجدون من يعبث بعقولهم، ويستغل فيهم هذا الجهل فيوجههم إلى مالا يحمد عقباه.!

إن الجهل بالدين أو الأمية الدينية، بدأ مرضًا عصيبًا يتفشى في مجتمعاتنا وأوطاننا، وينذر بكارثة رهيبة، لعل أولها وأهمها وأجسمها، خلق أجيال ناشئة ضعيفة المعرفة بالله، معدومة الصلة بجنابه، جاهلة بأحكام دينها ومبادئه.. إن نشر الثقافة الدينية في هذا الزمان، أصبح فريضة مهمة، تحتاج لكل مثقف أن يضرب فيها بسهم من هذا الجهاد، وحظه من هذا النضال، حتى ندعم ركائز هذا الدين، ونُثبيت أركانه في ربوع حياتنا.

العلاج بالقراءة!

سيظل الكتاب هو التحدي الأخطر بالنسبة للدول المتقدمة، وقد كادت الكلمة المسموعة تطغى على الكلمة المكتوبة، ولكن مع ظهور الشبكة المعلوماتية، عادت الكتابة لمنصة القيادة، وسيبقى الكتاب هو الوسيلة الكبرى للمعرفة، والقراءة تزيد من اللغة الشفوية والتوقف عن المعرفة اللغوية يعني التوقف عن الأفكار والتوقف عن المعرفة، فوراء كل كلمة فكرة.!

وهناك دراسة حول لغة الفلاحين، ولغة العباقرة والمفكرين جاء فيها: إن الفلاح يمتلك 600 كلمة يتعامل بها في حياته، ولكن وجدوا رجلًا مثل تشرشل يستخدم 30.000 كلمة، ومعناها 30.000 فكرة والاعتماد على اللغة الشفوية وحدها، لا يكون عالمًا أو مفكرًا ولا سياسيًا، ولعمر بن الخطاب ﷺ مقولة في هذا الشأن وهي: (تفقهوا قبل أن تسودوا) وقال الإمام البخاري معلقًا عليها : (وبعد أن تسودوا)، أي لابد من الاستمرارية لأن الذاكرة تضمحل، بل ثبت علميًا أنه كلما استمر الشخص في القراءة، تقل فرصة إصابته بمرض (الزهايمر)؛ لأن علماء النفس قالوا: إن المدركات اللغوية تصل للمخ في الجهة اليسرى في منطقة اللغة، والمعلومات والمدركات والمفاهيم، تعمل عملية تثبيت تؤكد الذاكرة وتنميها، وكلما قرأت كلما نمت أكثر وتقل فرص (الزهايمر)، حتى أن من تحدث له جلطة، يجرون له عملية تنشيط لغوي كالطفل تمامًا، مما يساعد على زوال الجلطة، بل ثبت أيضًا أن القراءة تقلل وتزيل الاكتئاب.

وهنا أتذكر الشيخ (ع ج) وأتعجب كيف لم تمحو القراءة والمطالعة ما به من زهايمر تناسى بسببه ما أعطيته من كتبي؟! وعذرا أخي القارئ فلا أريد أن أقطع أفكارك، ولا تلمني لأن كتبي التي أخذت مني تلح بخاطري دومًا كلما ذكرت كلمة الزهايمر.. غفر الله للشيخ وسامحه.[1]

إن النسيان يجتاح شرائح عظيمة من المسنين الذين تجاوزوا الستين والسبعين، وأنسب علاج لهم هو مداومة القراءة، حتى لا يدهمهم النسيان، فالاطلاع المستمر تجعل الكلمات ماثلة في ذهن القارئ، ومع التوسع الذهني وامتداد الثقافة، يجد كثيرًا من الاهتمامات والغايات الهادفة التي تشغله وتنشط حياته.!

[1] – ذكرت القصة كاملة في كتابي– اقرأ.. رسالة الوحي الأولى

(إن من أعظم ميزات القراءة، حينما تكون هواية نتعلق بها، أنها تحول دون ذلك النسيان، الذي يُصيب بعض المسنين بسبب التصلب الشرياني في الدماغ، وهذا النسيان كثيرًا ما يعرقل التفكير المثمر، ويجلب الاستهزاء بالمسن، ويوحي إليه الضعف والهزيمة، فيزداد سوءًا وانحطاطًا، فإننا ما دمنا نقرأ كل يوم، تبقى المعاني ماثلة في أذهاننا بشبكة من الكلمات، تظل الذاكرة حية والتفكير مثمرًا، حتى ولو بلغ المائة من العمر، أما الذين لا يقرؤون أو لا يجعلون القراءة هوايتهم، فإن التصلب الشرياني يؤدي عندهم إلى النسيان، وكان ما عرفوه من الكلمات قليلًا فإن هذه القلة يظهر أثرها في تفكيرهم، إذ إننا نفكر بالكلمات)[1]

إن العلاقة الجدلية بين الفكر واللغة وأيهما أساس للآخر، ما زالت قائمة، فالشخص الأصم لا يتعدى مستوى تفكيره مستوى التفكير الحاسي، ولا ينمو ولا يترقى في فكره، والعلاقة بين اللغة والتفكير، أشار إليها علماء النفس اللغوي بقولهم: إن هناك علاقة بين القدرة على التفكير واللغة، وهناك دراسات تقرر أن الشخص الذي لا يستطيع أن يتخذ قرارًا وليست له رؤية، هو شخص مضمحل الثقافة، وتستطيع أن توجهه حيثما أردت، لأن المعارف هي الأساس في اتخاذ القرار.

هل تتخيل أن يكون هذا العلم الحديث.. علم نفس القراءة أو العلاج بالقراءة، والذي أصبح العالم اليوم يقره ويمارسه في كثير من الحالات المرضية قد تنبه إليه الفراعنة قديمًا وسطروه على حفرياتهم وجدران معابدهم؟!

لقد أكد هذا علماء الآثار.. وذكروا أن المكتبات في أغلبها، كانت تابعة للمعابد وتستخدم في علاج كثير من الحالات النفسية، كما يذكر تراثهم أمثلة ومقولات تعبر عن هذا، كالتي ذكرت في المكان المخصص للمكتبة في معبد الكرنك.. (هنا علاج الروح)..!

[1] – حياتنا بعد الخمسين – سلامة موسى

ومن بعد الفراعنة كان أفلاطون، والذي أشار إلى تأثير القراءة العلاجية، وكان أطباء روما ينصحون مصابي الحروب بالقراءة في كتب الملهاة الكوميدية وغيرها.

أما العرب المسلمون الذين هم أمة القراءة، فلم يغفلوا هذا الجانب، حيث عالجوا كثيرًا من المرضى النفسيين بالقرآن الكريم، وبينت نصوصه الشريفة أنه فيه شفاء وعلاج (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين)[1] وكان ميدان الرقيا بآيات القرآن للمصروعين والملبوسين وأصحاب الجروح والآلام.. إلى أن جاء العالم الروسي (نيقولاس روباكن) في مطلع القرن العشرين، ويعد أول من وضع اللبنات الأولى فيما يعرف بعلم نفس القراءة.

وقد تخطى الغرب مراحل التحفيز على القراءة والدعوة لها، إلى مرحلة الكشف العلمي بقدرتها العلاجية لكثير من الحالات المرضية، فقد نشرت مجلة (النيويورك) مقالة لكاتبة عرضت علاجها بالقراءة في مدرسة الحياة بلندن، حيث تُقدم المدرسة لمرتاديها عن طريق التدريب، من قبل متخصصين لمواجهة ضغوط الحياة اليومية والعمل والحوارات العميقة، مع استشاريين نفسيين والعلاج بالقراءة، لقد بدأ طريقها العلاجي معهم بسؤالهم لها: ما الذي يشغل بالك هذه اللحظة؟ وبناء على إجابتها على السؤال وأسئلة تفصيلية أخرى، حصلت على الوصفة العلاجية التي ستشتريها من المكتبة بدلًا من الصيدلية، وفوجئت بأنها مجموعة كتب، لم تقرأها أبدًا كونها خارج اهتمامها بالقراءة، الوصفة كُتبت بناء على تشخيص حالتها الفكرية والنفسية، والمثير في الأمر، ملاحظتها لازدياد قدرتها على تحمل ألم عضوي تُعانيه خلال أشهر من استخدامها للوصفة المكتبية.!

تقول إحدى الكاتبات: " إن العلاج بالقراءة صار اليوم علمًا جديدًا، قراءة كتاب شيء له تأثير يختلف من شخص لآخر، فهو يعمل كمسكن للبعض، وللبعض الآخر يعطي مفعول قطعة حلوى على طفل، والدليل على ذلك أمر الجنود المشاركين في الحرب العالمية الأولى

[1] – الإسراء :82

بالقراءة بعد عودتهم، ووُجد أن الشخص القارئ له قدرة على التعامل مع ضغوطات العمل والتحكم بالعلاقات بشكل أفضل، وأنه يتمتع بصحة عقلية أكثر من غيره، وأن قراء الرواية يكتسبون خبرة تجعلهم يتصرفون تصرفًا صحيحًا في بعض المواقف، وإن لم يسبق لهم التعرض لها من خلال محاكاتهم لتصرفات أبطال الرواية"

كان الأطباء في أوروبا يصفون الكتب في (روشتات) طبية للخارجين من جحيم الحرب العالمية، وكانت أكثر الكتب مبيعًا هي كتب الفكاهة والأدب الساخر، إلى حد الاستعانة بكتاب ساخرين من أمثال (جورج برنارد شو) لإلقاء محاضرات في المستشفيات العامة، وذلك في محاولة لحمل جرحى الحرب على نسيان أو تناسي تجاربهم المؤلمة، وطبقًا لقاموس (أوكسفورد) الانجليزي ظهر مصطلح (بيبليوثيرابي) علم نفس القراءة، مطبوعًا أول مرة عام 1920م، وفي رواية كريستوفر مورلي (المكتبة المسكونة) التي تصور عالمًا كان خارجًا لتوه من الحرب العالمية الأولى، تصور علاقة حمقاء تربط بين فتى إعلانات ووريثة لإحدى الإمبراطوريات، مع وجود مؤامرة من جانب ألمانيا لتفجير موكب الرئيس الأمريكي.. ويأتي (ميفلن) بائع كتب في هذه الرواية، والذي يمارس طب العلاج بالكتب، ويقول: "متعتي تتمثل في وصف الكتب للمرضى، عندما يأتون إلى هنا ويعربون عن استعدادهم لإخباري بأعراض أمراضهم، ولا يوجد على وجه الأرض أكثر امتنانًا من إنسانٍ مددت له كتابًا كانت تتوق إليه روحه، ولم يكن يعرف به"[1]

إن للقراءة فوائد عظيمة في نفس الإنسان، والذين لا يقرؤون يفوتون على أنفسهم كثيرًا من الفوائد والمنافع الهامة، وقد ذكر المختصون بعضا منها مثل:

1 - زيادة معدل الذكاء.. فالذين يقرؤون لديهم معدل ذكاء أعلى ومعلومات عامة أكثر.

[1] من مقال كيف تجلب الكتب السعادة؟ هيفزيباه أندرسون

2- تحسين الذاكرة.. عندما تقرأ يجب أن تتذكر ترتيب الشخصيات وخلفياتهم، بجانب الأحداث التي تحدث في طريقهم، فالدماغ يقيم نقاط اشتباك عصبية لكل ذاكرة جديدة تنشئها، ويقوي الذكريات السابقة، وهذا يساعد على استدعاء الذكريات على المدى القصير.

3- التقليل من التوتر.. مهما كان يومك عصبيًا، أو علاقتك بالآخرين متوترة، فإن قراءة رواية جيدة أو خيالية، تساعدك على التخلص من التوتر وتتيح لك الاسترخاء.

4- الهدوء.. بجانب الاسترخاء، فإن قراءة الكتب تجلب لك السلام والهدوء الداخلي، فقراءة المواضيع الدينية، تخفض من ضغط الدم وتشعر بالطمأنينة.

5- تحسين التركيز.. حيث تساعد القراءة على التركيز بعيدًا عن المشتتات اليومية.

أرجوكم لا تقرؤوا

هل تتعجب مني لو قلت لك يومًا: لا تقرأ، أو تندهش حينما تراني أقول للناس: إن القراءة صارت مصيبة فلا تقرؤوا! وأنت الذي تعلم عني دومًا، أنني من أوائل من يدعون إلى القراءة، ويربطون مستقبل أمتنا وتقدمها وعزها بامتطائها.

ولكني أقول لك: إذا رأيت علي أو مني يومًا شيئا غريبًا، فلا تتعجب حتى تعرف السبب، وأن تدرك أن هناك علة قوية، وشيء ما وراء الكواليس، جعلني أخالف ما أدعو إليه ليل نهار.!

وأنا اليوم أعلنها وأقول لصنف معين من الناس: أرجوكم لا تقرؤوا! لأن قراءتكم ستكون وبالا على عقولكم وعلى من حولكم، لا تقرؤوا إذا كنتم من هذا النوع الذي يقرأ بعينه لا بعقله، يسجل في ذهنه ما يراه بلا تبصر ولا فهم ولا تعقل ولا تمحيص ولا مقابلة، يستطيع بها أن يتبين الصحيح من الخطأ، والسليم من السقيم المعلول، لأن الحقيقة الكامنة والمعلومة المؤكدة، أنه ليس كل ما يكتب يكون صحيحًا، وليس معنى أن بعض السطور تجمعت في

كتاب، أو صفت على الورق، أنها معصومة من الخطأ، ومن هنا لزم للقارئ أن يكون ذو عقل واعي حصيف ذكي مدرك، يستطيع أن يستظهر الخطأ ويقع على الزيف من أول لمحة وأول سطر.

قرأت مؤخرًا كتاب (حكايات الجواري) للصحفي سعيد أبو العنين وكان الرجل يتحدث عن أثر الجواري ونفوذهن في حياة القصور وحياة الخلفاء، وفي الصفحات الأولى للكتاب تعرض لهارون الرشيد، وذكر هيامه المفرط بالجواري، وولعه وعشقه لهن وبهن، ثم لكي يكون منصفًا ذكر أن هذا الرجل هو أغرب خليفة عرفته خلافة بني العباس، والذي كان قمة في التناقض، فهو الذي أثر عنه أنه كان يقيم في الليل مائة ركعة، وكان يبكي من مواعظ الزهاد ويقرب العلماء إليه، ويحج عاما ويغزو عاما، ثم بعد ذلك يغرق لشوشته في دنيا الجواري حيث يجمع منهن في قصره أعداد كبيرة، وينغمس في اللهو والمتعة، ويقبل على كل ما يثير عواطفه وشهواته الحسية.

ويبدو واضحًا من هذا الكلام أن كاتبنا لا يفهم شيئا، ولا يعرف من أين وكيف يأخذ التاريخ؟ وكيف يميز صحيحه من سقيمه؟ كل هذا لأنه من أتباع القراء السطحيين الذين يقرؤون دون تبصر وتمحيص ودراسة ووعي، لأن كل الأخبار الواردة في شهوات هارون الرشيد وتصويره أنه من أهل المتعة واللهو، إنما قصها كتاب الأغاني، وهو كتاب ساقط منحرف، لم يترك نبيلا من المسلمين إلا وزج به في عالم اللهو والمتعة ومساخر الفسوق، ليشوه أعلام المسلمين، ويصور للدنيا أن هذه الأمة أمة لهو ومتع وشهوات، ولم تكن أبدًا أمة جد وجهاد واجتهاد، حتى الصحابة الكرام لم يسلموا من شره وزوره، ولو رجع القارئ إلى الكتب الصحاح المعتمدة، لما وجد شيئًا من هذا الهزل في دنيا الرشيد، ولوجده من أعظم ملوك الدنيا وأقربهم وأعرفهم وأخشاهم وأتقاهم لله تعالى.

ومن هنا تأتي القراءة الواعية البصيرة كيف بالله عليك ينسجم في عقلك ويستقيم في ذهنك أن يكون هناك رجلا يقيم الليل كله بمائة ركعة، ويبكي من مواعظ الزهاد ويقرب العلماء، إليه ثم هو غارق موحول في دنيا الترف والشهوات إلى هذا الحد المذهل.؟!

والرجل مؤلف وصنف للناس كتابا، وبدلا من أن يهتدي للفهم القويم، خرج بنتيجة معوجة ممجوجة غير مقبولة وهي أن هارون الرشيد كان رجلا متناقضا.!

وهذا ما دعاني أن أقول اليوم وكلي إصرار: أرجوكم لا تقرؤوا إذا كنتم قد ألغيتم عقولكم وأفهامكم وبصائركم أمام القراءة، وتعاملتم مع أي كتاب على أنه وحي من السماء لا يقبل النقاش والجدال والشك والتأمل، أرجوكم لا تقرؤوا إذا كان هذا منهجكم وتلك طريقتكم، لأن القراءة وقتها ستزيدكم ضلالاً وظلاما وإفكًا وجهلا، لا تقرؤوا علوما أكبر من عقولكم ومعارفكم، وتحروا دا ئمًا بالسؤال لدى كل عالم بصير.

يقول الله تعالى:" أفلا يتدبرون " و لم يقل أفلا يقرؤون، وهو فرق هائل وبون شاسع.

قراطيس الطعمية

ما زلت أتذكر بقوة ودقة، حينما كنت أجتمع وإخوتي الكبار على طعام الافطار، وما أن ننتهي من قرطاس (الطعمية) حتى يبادر أحدهم بفرد هذا القرطاس، وقراءة ما فيه على مسامعنا، حتى تعلمت من إخوتي هذا الفعل، وكنت أقلدهم فيه فأقرأ أوراق القراطيس كلما اشتريت طعامًا، أو هممت بالإفطار مع بعض الأحبة والأصدقاء.

كانت لقراءة قراطيس الطعمية ألفة غريبة، وحلاوة باهرة في النفس، يجدها القارئ عما يجدها في غيرها من الكتب القيمة الثمينة، وكانت المعلومة التي نأخذها من قرطاس الطعمية، تتثبت في الذهن ولا يمكن أبدًا أن ننساها، وكأنه جاء محملا بغذاء العقول قبل غذاء البطون.!

حتى ولو كانت هذه المعلومة التي يحملها قرطاس الطعمية تافهة، فإنها تتحول بقدرة قادر ذات قيمة ونفاسة، لأنها اختلطت بهذا الزيت المنحدر من أقراص الطعمية، ليزينها بصورة بهية، وكأنها ورقة من أوراق الباردي القديمة، التي تحكي أثرًا من آثار الفراعنة القدماء.

ولعلك تصدقني لو أقول لك، إن قراطيس الطعمية كانت المقام الوحيد الذي تجد فيه صفحات مجلة روز اليوسف قيمتها ومكانها، وكانت الطريقة الجهنمية الشيطانية، التي توزع عن طريقها أفكارها المزيفة الساقطة على جماهير الشعب المصري، فإذا كان لا يسعفه شراءها وقراءة صفحاتها، فلتكن أمامه مجانية في قراطيس الطعمية.

شيء وحيد كان يحزنني من هذه القراطيس، على قدر ما كنت أبهج لها وآنس بها، وذلك حينما كانت تأتي صفحاتها من كتاب دين يمتلئ بآيات القرآن الكريم، أو كتاب فخم من كتب التراث، كالبداية والنهاية أو فتاوى ابن تيمية أو عيون الأخبار لابن قتيبة.

ياله من حزن مؤرق حينما ترى العين بائعًا جلفًا، يبقر بطون المراجع العظام ويمزق صفحاتها، لتكون قراطيس يبيع فيها سلعته، هل تتخيل أن نكون أمة يمزق فيها كتاب إحياء علوم الدين أو زاد المعاد لابن القيم ليباع فيها، فلتتنزل علينا نقمة عُلوية، حينما يهان فينا وبيننا هذا التراث العظيم، حينما يفرط فيها الجهلاء ليضعوه في أيدي الجهلاء، لنراه نحن بعد ذلك، نرى صفحاته مشربة يالزيت، فنبكي عليها ونرثي حالها ونتألم لمصيرها.

ومن نوادر فضيلة الشيخ عبد الحميد كشك قوله:

إنه كان حريصًا على أن تُقرأ عليه كل ورقة تأتى إليهم، ثم دار الزمان دورة وتم تعيينه في مسجد مكان عالم كبير فضاق به بعض جمهور المسجد، فكيف يأتي خريج صغير مكان عالم كبير!؟ فيقول: ومع أول درس له فإذا بأحدهم يسأله: ماهي الآية التي بها خبران وأمران ونهيان وبشارتان؟ فتذكرت ورقة الطعمية فأمهلته حتى نهاية الدرس فلما انتهى الدرس قال

أين السائل؟ فقلت له يقول الله تعالى: (و أَوْحَيْنَآ إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِى إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)[1] {وكان قد قرأ هذه المعلومة في ورقة طعمية، فكان ذلك سببًا في جمع الناس حوله.

يقول أحد المؤلفين: "في أثناء حديثي مع أحد رواد النشر عن طريقة تسويق الكتب صفعتني عبارته العفوية: (يا أستاذ مستحيل الكتاب يخسر، لو معرفناش نسوقه الكتب بالكيلو لبتوع الطعمية؟!).. فبعيدا عن أنك ترى بعينك عصارة أفكارك وإلهاماتك قد اختلطت بزيت الطعمية الأسود، ليقدم للناس في قرطاس محكم خشية أن يتساقط منه بعض حبات الطعمية الملتهبة ليكون مصيره بعد دقائق إلى سلات القمامة، لكني كنت أكثر تفاؤلا عندما تذكرت أن أبرز المقالات والأخبار التي قرأتها كانت من قراطيس الطعمية، بل إن هناك من الناس من قرأ منها أكثر مما قرأ من الكتب والصحف اليومية، والغريب أن بهذه القراطيس سحر لا يمكن مقاومته فتجد عندك فضول شديد لقراءة ما تحويه هذه الورقة المتشبعة بالزيت وبالفتات الذي تبقيه الطعمية، وبهذه الطريقة العبقرية يكون الناشر قد نجح في الترويج للكتاب الذي اعتلى رفوف المكتبات لسنوات دون أن يطرق بابه أحد، وأعتقد أنها وسيلة ساحرة لخبراء التسويق لإعادة النظر في استخدام وسائلهم باهظة الثمن دون التطرق لهذه الوسيلة البسيطة ذائعة الصيت، ذكرني ذلك بخبر قرأته قبل شهور أن هناك بائعًا للطعمية بمحافظة الشرقية قد ذاع صيته وصار مقصدًا للسيدات في كل صباح، وكان السبب في ذلك أنه يقوم بعمل قراطيس الطعمية في أوراق قضايا محكمة الأسرة، الذي نجح في الاستحواذ على ٢٠٠ ألف ورقة منها، وجدت من خلال ذلك أن قرطاس الطعمية هو الأكثر نفوذًا وتأثيرًا في قلوب وعقول المصريين، وكأننا نقدم غذاء لعقولهم مع غذاء البطون الذي اعتادوا عليه كل صباح، بل إنك ستنجح في تسويق كتابك ببراعة إذا

---

[1] – سورة القصص

استطعت أن تتعاقد مع صاحب (عربية فول).. ففي الثامنة من صباح كل يوم، تجد عنده صفوة المجتمع من موظفين ومستشارين ومحامين ومهندسين وطلاب، قد قصدوا عربته واقفين مزدحمين في انتظار إفطارهم المعتاد بالبدل الرسمية والعطور الفخمة، بل تجد أحدهم متجردًا من (برستيجه) الذي يحاول دائمًا إظهاره عندما تراه ينادي على البائع بعفوية مطلقة: زود بصل ولمون هنا يا باشا! فكان لزامًا علي أن أعتذر لذلك الناشر العبقري الذي ظنت به ظن السوء، فقد وجدت لقرطاس الطعمية سحرا لا تحويه أرفف المكتبات أو أجنحة المعارض."[1]

كتب ونيران!

كان مشهد النيران وهي تلتهم كتب صديقي عملا مرًا لا يحتمله القلب، لكنني استطعت الشعور به والإحساس بمرارته، لحبي للكتب ومعزتها في قلبي، وقد أقدم على هذا العمل رغم أنفه، حينما اضطرته بعض الظروف، في بعض الفترات الزمنية الماضية، أن يحرق بعض الكتب التي لا تناسب الوقت أولا يقبلها الزمان.

وأخبرني صديق آخر: أنه لم يكن يستطيع أن يرد على استفزازات إخوته في خلافاتهم معه وهم صغار، لأنهم كانوا يهددونه دومًا بحرق كتبه إن أغاظهم، أو أوغل في كيدهم، لمعرفتهم مكانتها في نفسه، فلم يكن منه إلا أن يتراجع ويتسامح، أمام هذا التهديد الذي لا يتحمله قلبه ولا عقله ولا أي شيء في جسده، لعشقه لكتبه.!

لعل النيران هي أوثق الطرق، وأسرع السبل التي تقفز إلى عقلك، إذا ما أردت القضاء على كتاب من الكتب، فمجرد إهماله أو تنحيته لا يشفي قناعتك بسقوطه، وليس هناك غير النار كمصير يستريح له عقلك ويرضي قناعتك.

[1] – أحلام مؤجلة – للكاتب – أحمد شاكر

لقد كانت النيران طريقا ومنفذا ونجاة لمن يمتلكون كتبًا لا ترضى عنها الأنظمة وتعاقب من يقتنيها، وتلبسه تهمة خطيرة إن وجدوها في بيته وعلى رفوف مكتبته، بل تجد في بعض البلدان، أن بعض الكتب كفيلة أن تجلب لصاحبها ومقتنيها حكم الإعدام لو وجدوها في مقتنياته.

وأمام هذا المصير الموحش تعد النار من أنجح الطرق للهروب من شبح هذه العقوبة، وهذا المآل الخطير، لأنها لا تُبقي من سطورها ولو حرفًا واحدًا يمكن أن يجر على صاحبه وبالا متوقعا.! فلا الإخفاء ينفع، ولا الدفن يقنع.!

وإذا كانت النار حلول الخائفين والضعفاء لكتبهم، فإنها كذلك كانت حلول الأقوياء الذين يتصورون أن اللهب يقضي على الفكر ويحجب ضوءه، وهي نظرة قاصرة ضعيفة، فقد أحرق هتلر كتب المفكرين الذين لا يرضى عنهم، وفي النموذج الإسلامي أحرق المرابطون كتاب الغزالي، والموحدون كتب ابن رشد.

وأسلوب الحرق ما هو إلا عملية تعبير وخيال واهم، يمني النفس بما تهواه من القضاء عليها وعلى أفكارها، ولكن الحقيقة أنه لا شيء يزول، ولا تتحول الأفكار أبدا إلى رماد، مهما عظم اللهب واتسعت خنادقه.!

كنا نستعظم أن يحرق القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه، حينما استخرج المصحف الجامع وأحرق ما دونه، ولأن الحرق سلوك بشع عنيف، ولا يكون إلا جزاء للأشقياء، فلم نستسغ الأمر حتى جاء شيخنا في كلية أصول الدين ليقول لنا : (بل السنة الحرق في القرآن) وعليه كلما وجدت مصحفا باليًا لا يمكن إحياءه خشيت على آياته من الامتهان فأقوم بحرقه بنفس راضية وعقل قانع.

وإذا كان هؤلاء المبغضون قد قدروا على هذه الكتب وأشعلوا فيها النيران، فإن هناك في قصص المحبين من قدرت عليهم الكتب، وكادت أن تتسبب في حرقهم وحرق بيوتهم، في صورة مختلفة معاكسة لسلوك المبغضين، ليكون حالهم على حد تعبير القائل: ومن الحب ما قتل!

كان توفيق الحكيم يهرب بكتبه الأدبية التي لا يرضى عنها والده، ليقرأها تحت السرير في عتمة الظلام، ويصطحب معه شمعة تضيء له ما أمامه من صفحات الكتاب وسطوره، ومرة أصابه الفزع حينما ناداه والداه ليتناول الغذاء، فخرج مسرعًا من تحت السرير، وترك شمعة كأنها أسد نائم، أو نار تحت الرماد توشك أن يكون لها ضرام، لقد ترك الشمعة في صحبة الكتب، وبعد يسير من الوقت، سمع جلبة وأصواتًا في الشارع، ودعاوات لإطفاء الحريق، ولم يتبادر للأسرة أبدًا أن الحريق في بيتهم، وفي الحجرة التي خرج منها الصغير من وقت يسير، وكأن الشمعة قد عز عليها أن تظل وحيدة، فغضبت وأحرقت السرير وامتدت نيرانها لحرق الحجرة كلها، ونال بسبب ذلك علقة ساخنة لا ينساها أبدًا.

نفس المشكلة حدثت لأنيس منصور، حينما كانت أمه تمنعه أن يقرأ كتبًا بالليل خوفًا على ضعف بصره أن يزيد، وحدث مرة أن غلبه النوم، فنام ليحرق المصباح الغازي شعر رأسه ورموش عينيه، ومرة سقط المصباح وانكسر، وكادت تقع حريقة في كتبه وكراريسه وملابسه.

وهذا حزء من تاريخ العلاقة بين النار والكتب! أو بين النار وعشاق القراءة.

اقتنوا كتب الموت

عن نفسي وفي مكتبتي، هناك قسم خاص بكتب الموت والآخرة، والقبر وعذابه ونعيمه وأهوال القيامة والجنة والنار.. كتب مبرزة واضحة قريبة دانية لأن يدي تلتجئ إليها كثيرًا

وهكذا يجب للقراء أن يفعلوا في مكتباتهم، فالمكتبة التي تخلو من كتب الموت والتذكير بأمر الآخرة، مكتبة غافلة ساهية ضائعة ناقصة، تفتقد أهم عناصرها في خلق إنسان مخلص حكيم تقي متجرد.. واليد التي تقصر في تناول كتب الموت والعين التي تبخل بالنظر فيها، إنما هي جوارح ضحك عليها الشيطان وأغراها في غفلتها.

اقرأ ما شئت أن تقرأ لشوبنهار ودوستوفيسكي وفولتير وروسو وكافكا ودانتي وبوشكين.. لكن لا تنس أن تقرأ للقرطبي في كتابه التذكرة بأحوال الموتى والدار الآخرة، وكتابي الروح وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم، و كتب ذكر الموت والقبور وصفة الجنة وصفة النار لابن أبي الدنيا، وكتاب: أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور، وكتاب التخويف من النار لابن رجب الحنبلي، و كتاب شرح الصدور بأحوال الموتى والقبور للسيوطي، و كتاب إثبات عذاب القبر والبعث والنشور للبيهقي، وكتاب البحور الزاخرة في علوم الآخرة للسفاريني، إلى غير ذلك من الكتب التي وضعها علماء المسلمين.. والتي لا تنس أن تحرص على اقتنائها محققة حتى تتبين لك درجة الأحاديث؛ فبعضها محشو بأحاديث ضعيفة أو موضوعة.

نلمس في القراء وفي عالم القراءة، أن هؤلاء الذين يدمنون المطالعة، يقرؤون كل شيء وتستمتع أعينهم بكثير من الكتب في شتى المجالات.. لكن أحدهم لم يفكر يومًا أن يقتني كتابا عن الموت، أو يقرأ سفرا يُذكره بهذا العَالَم وما فيه من ثواب وعقاب أو نعيم وشقاء.. وهي الصفحات التي لا شك لو قرأها، ستغير من مسار نفسه وحياته، وتجعل نظرته للدنيا نظرة مختلفة، والتعامل مع أمورها تعاملا مغايرًا على ما هو عليه.. نظرة يشوبها كثير من الزهد والإخلاص والتجرد والحكمة.

القراءة عن الموت ضرورة لكل إنسان، بل لا أبالغ عن قلت أنه يجب أن يكون لنا ورد من يومنا للقراءة عن الموت، حتى يقف بنا على كثير من حقيقتنا التي تغيب عنا أو نغيب عنها،

والتي يحدث بسبب غيابها كل ألم وظلم في هذه الحياة، ومن هنا أدرك الرسول العظيم صلوات الله وسلامه عليه عظم هذه الفضيلة وأثرها في تقويم النفس واعتدال الشخصية ونجاة الذات من حظوظ الشيطان، فلم يأمر أو يحث عليها فقط، وإنما جعلها ميزان الرجال ومؤشر تفاضلهم، فربما يكون الرجل على كثير من الأعمال الصالحة، لكن تقييمه وميزانه يصيبه خلل كبير إذا لم يكن للموت ذاكرا، ولعل هذا الحديث النبوي يوضح لنا هذا الأمر فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: مات رجل من أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – فجعل أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يثنون عليه، ويذكرون من عبادته، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – ساكت ، فلما سكتوا قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم: " هل كان يكثر ذكر الموت ؟ قالوا : ل قال : " فهل كان يدع كثيرًا مما يشتهي ؟ . قالوا : لا قال : "ما بلغ صاحبكم كثيرا مما تذهبون إليه "[1]

لا شك أن الموت هو أكبر حقيقة في هذا الوجود، وهو أكبر شيء يثير قلق الإنسان وتهيم في أمره ظنونه وتخيلاته، كما أنه أكبر موعظة تهد كبرياء الطغاة وغرور المتكبرين وظلم المتجبرين، وهو أعظم مؤثر يستطيع أن يقتل نوازع السرور في النفوس كلما نسيت أو غفلت وجنحت للسوء والأهواء، وهو أي الموت على قدر مخافته والفزع منه، لابد من ذكره في حياتنا وتمثله في أذهاننا بين الحين والحين، حتى تسلم نفوسنا من المخاطر والمفاسد التي تدب إليها..

هذا الموت الذي يستوي فيه الجميع رغم أنوفهم، فيذوقه الأمير والغفير والصالح والطالح والغني والفقير والقوي والضعيف والظالم والمظلوم والغالب والمغلوب.

نجد على الأرض رجلين لا يطيق بعضهما بعضا، ثم تبتلعهم الأرض في أحضانها حتى يتشكل منهما مادتها وترابها الذي نطأه بأقدامنا ولله در القائل :

---

[1] – رواه الطبراني وإسناده حسن

خفف الوطء فما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد!

فما هذا العجب وما هذا الخفض والرفع، وما هذا الدوران المخيف؟ الذي يلفت إلى حقارة الدنيا وضآلتها وخسة غرورها وفناء متعتها.!

حينما أقرأ.. أطلب المتعة والمعرفة، وأطلب الفائدة والجديد، وأطلب الثقافة والتميز، فلماذا إذن لا أطلب الموعظة بقراءاتي، وهي أمر ضروري يقف بالإنسان على حقيقة الحياة ومآله فيها، القراءة في كتب الموت تنفي عنك الغرور وتملأ قلبك بالوجل والخشوع، وتجعلك إلى الله ضارع وإلى عفوه آمل، وإلى رضاه مسارع منيب، انظر إلي وقد خلعت عن نفسي رداء الغرور والعجب، والميل إلى النزاع على الدنيا والتسيد فيها، حينما قرأت هذا الأثر المؤثر، إذ يحكى أن رجلين تنازعا و تخاصما في أرض، فأنطق الله عز وجل لبنة من حائط من تلك الأرض فقالت: يا هذان فيم تتنازعان ؟ و فيم تتخاصمان؟ إني كنت ملكًا من الملوك، ملكت كذا و كذا سنة ثم مت و صرت ترابًا، فبقيت كذلك ألف سنة ثم أخذني خزاف - يعني فخار- فصنع مني إناءً، فاستعملت حتى تكسرت ثم عدت ترابًا فبقيت ألف سنة، ثم أخذني رجل فضرب مني لبنة، فجعلني في هذا الحائط، ففيم تنازعكما و فيم تخاصمكما ؟

اللوم علينا ابتداء

في البلاد الغربية، حينما تثار زوبعة أو إشاعة، أو يتناول الإعلام شخصًا أو جماعة أو دينا أو فكرة من الأفكار بتهمة من التهم، تهب الجماهير نحو المكتبات، وصفحات الانترنت، تبحث وتقرأ وتعرف ثم تتبين وتحكم.

لكن هل يكون نفس التفاعل مع جماهيرنا العربية؟

للأسف لا.. لأن أغلب شعوبنا ومجتمعاتنا العربية والإسلامية، تستقي فهمها ووعيها من التلفاز والإعلام، ويتخيلونه أنه قرين لوحي السماء المصدق المقدس؟!

بل للأسف الآسف، نجد هذا الإعلام موجهًا ولا يسيطر عليه إلا من لا يرجون لله وقارًا، وينتمون إلى مذاهب تغريبية علمانية ويسارية، لا تحترم تراثًا ولا دينا ولا هوية.

المسلمون في الغرب يروون لنا أن قطاعات كبيرة من القراء، شبانا وشيوخًا، كبارًا وصغارًا، يقبلون على المراكز الإسلامية، تريد أن تتعرف على الإسلام، حينما تثار عليه الأقاويل، وتُشَن عليه الغارة، وتكون هناك نتائج إيجابية، أكثر بكثير من النتائج السلبية التي هدف إليها المغرضون.

وكنا نتمنى من جماهيرنا العربية والإسلامية أن تكون على هذا المستوى، حينما تَسلط المنحرفون على تراثهم وقيمهم ورموزهم وثوابت دينهم، فيسارعون للمعرفة والتبين والاستنارة، ولا يتركون أنفسهم فريسة للجهل والخرف والتضليل، وأساليب الكيد الرخيصة التي تجافي الحقيقة والإنصاف.

وفي الأيام الأخيرة أثار بعض المسلسلات لغطًا فجًا حول بعض المفاهيم، واتهام بعض الرموز بما هم منه براء، كان آخرها العدوان على شخصية ابن تيمية، فكيف كان تعاملنا مع هذا الحدث؟

هل أسرع الناس إلى المكتبات وصفحات الإنترنت يتبينون من هو ابن تيمية؟ أوساقهم هذا الجدل لمعرفة الحقيقة؟ ليرى أحدهم نفسه بعدما يتكشف له الحق، كم كان مغيبًا مغفلا مضحوكًا عليه حينما استجاب للإعلام، وصدقه في كثير مما ينطق به ويقول.

وبعضهم يريد أن يعرف القول الفصل في الجدل الدائر حول قضية من القضايا، ولكنه لا يصل إلى شيء، لأنه لا يحب القراءة والمعرفة وشراء الكتب وزيارة المكتبات، ومن ثم لا يعرف من قضية إلا ما أثير حولها من شبهة، لتشيع التهمة وتتمكن الشبهة، وهذا مصير أمة لا تقرأ ولا تبني ثقافتها على الكتاب، ولكن.. لعل وسائل الإعلام الحديثة، قد أتاحت

للمخالف قليل الحيلة، أن يرد ويُعرِّف ويُبين ويواجه كثيرًا من الأخطاء المشاعة، ومن هنا كانت الفرصة والعوض الكبير، وإيصال الرسالة المهمة، لمن لا يطيقون النظر في الكتب والأبحاث، فإذا دخلت باحثًا في اليوتيوب، وجدت ما يصحح لك الخطأ ويقيم لك العوج، دون أن تجشم نفسك عناء القراءة وإرهاق العين.!

أما الغريب من بعض الأصدقاء في الصفحة الزرقاء، حينما أقيمت هذه الحملة على ابن تيمية، رأيته يبحث في الإنترنت على كل كلمة ومقطع ومقالة أساءت لابن تيمية وينشرها على صفحته، والغريب أنه يعرضها وكأنه يقول للقراء: هناك فعلا من يرى أنه من الضالين والوضاعين.!

وقوم آخرون ينشرون الشبهات عن الرجل، لأن لديهم نظرية مقدسة يؤمنون بها في الحياة ويرونها في مقاييسهم أقدس الأقداس، وهي أن البشر غير معصومين وابن تيمية بشر، فلماذا تدافعون عنه كأنه ملاك أو نبي من الأنبياء، وأنا لا أعرف ما هذا المنطق؟ إننا نعرف أن الرجل من البشر، ولكنه لم يخطئ ولم يرد عنه أنه أخطأ في شيء، فهل أهيل التراب عليه لمجرد أنه بشر، وأُخطئه بالقوة، هل هذا هو الدليل والحجة التي أنتصر بها وأقيمها على الرجل والمدافعين عنه.!

وهب أن بعض المخطئين استشهد بكلام الرجل في غير موطنه، وبغير فهم منه، فهل يتحمل الرجل وزر هذا الجهل وعناء هذا الحمق؟ كان المتشددون دومًا يذكرون ابن تيمية، ويروون آراءه ويقرؤون كتبه، فهل معنى هذا أنه أساس شدتهم حينما يروون مالم يقصده أو يريده؟

وهؤلاء هم السلفية حولنا لا هم لهم ليل نهار، ولا رسالة لهم في الحياة، إلا سحق الصوفية دون التمييز بين ضُلالها من هداتها، والمتسننون فيهم من المبتدعين، فهل هم بهذا يعبرون عن ابن تيمية حينما يستشهدون بأقواله في ذم الصوفية، وهو الذي ورد عنه احترام أبي حامد

الغزالي وابن عطاء الله السكندري صاحب الحكم، وغيرهم كثير من أئمة الصوفية وأعلامها.

هل من المنصف أن أستشهد بمقطع مرئية لصوفي قبوري من أهل البدع، لأسأله عن رأيه في ابن تيمية، كما فعل بعض أصدقائنا مؤخرًا، وجعله مثالا لرأي العلماء في ابن تيمية.؟!

ماذا ينتظر صديقنا من قبوري أن يقول قوله في ابن تيمية؟ وهو الذي شن عليهم حربًا لا هوادة فيها، وكافح بدعهم، وفضح شركياتهم، وكان لهم وفي روعهم، أكبر عدو بعد الشيطان إن لم يكن قبله.!

إن طرق الإنصاف لا يهتدي إليها إلا العقلاء الذين ينشدون الحقيقة الصادقة من معينها الأكيد، أما هذا التهييج وهذا الخوض الفارغ، فلا قيمة له ولا يعود على صاحبه بشيء إلا الخسران والضلال.!

وتبقى كلمة لا بد منها وهي: إن اللائمة الكبرى لا تقع على من يهاجم تراثنا ويسحق رموزنا، ولكنها تقع على جهالتنا وقلة معارفنا وعزوفنا عن الفهم والقراءة والوعي والتبصر والدراية، لنترك أنفسنا فريسة وضحية لغلواء الماكرين وتضليل المتربصين.!

ولكن رغم هذه التصور الواقعي القاتم، لا نعدم الخير أبدًا بين جماهير القراء، فقد أخبرني صديق أنه له صديقًا يعمل في الفجالة، أبلغه أن هناك إقبال كبير وملحوظ على كتب ابن تيمية، حتى أنها نفذت من كثير من المكتبات، وهنا لا يسعنا إلا القول بأن السحر انقلب على الساحر، ومن كان جاهلا بابن تيمية، سارع إلى التعرف عليه، وكل يقين أنه لن يجد في تراث الإمام إلا كل ما يبهج النفس ويحمس للمعرفة ويزيل الجهالة ويدفع التهمة.

القراءة الواعية

القراءة لا تقوم على حشو الدماغ تمامًا كما يحشو الإنسان معدته، ولكن المهم فيها، هو عملية التأمل والتفكير فيما تقرأ، عليك أن تطوي الكتاب جانبًا وتتأمل فيما قرأت ماذا تستفيد، وماذا يهديك عقلك فيما عرفت، وما الفكرة الجديدة التي تولدت لديك من قراءتك؟

القراءة المتعجلة، لا يمكن أبدًا أن تمنح صاحبها بصيرة نافذة، يدرك بها حقائق الأمور وماهية الأشياء، لا بد أن تدخل المعاني إلى قلبك وحسك وتتربع في وجدانك، حتى تتكون هذه البصيرة التي تتكشف بها كثيرًا مما خفي عليك، وتتوصل بها إلى العديد مما كان بعيدًا عن إدراكك.. وكما قيل: إن حرفًا في قلبك، خير من ألف حرف في كتابك.. وهو المعنى الذي نؤكد عليه هنا، حيث نريد أن يلتحم الكتاب بك، وتلتحم أنت بحروفه وكلماته وأفكاره، فيحدث نوعًا من الاندماج والتأثير، تتشكل به نفسك التي تتحول إلى آلةٍ منتجةٍ للجديد من الأفكار والآراء والإبداع.. وهو نفس التفكير والتأمل الذي وجده المأمون يومًا في ولده حينما سأله ماذا تقرأ؟ فقال:

أقرأ ما يشحذ الفطنة ويؤنس الوحشة.! فقال المأمون: الحمد لله الذي جعل في بني من يري بعين بصيرته، أكثر مما يرى بعيني رأسه.! وكان أفلاطون ينتقي النابهين من تلاميذه ويعطيهم دروسًا خاصة، وينطق في أول الدرس بكلمة ثم يسكت، مثل كلمة الزهد، أو كلمة العفة، أو كلمة الشجاعة، ثم يسكت، ويكون الدرس سطرًا واحدًا لا أكثر من ذلك.. كان يسكت ليدرب التلاميذ على التفكير المستقل المجرد عن الأستاذ.!

وقد يتحول غياب التفكير إلى مأساة وكارثة، نجدها أكثر ما نجدها في أولئك الحَرفيين أو النصوصيين، الذين امتلأت بهم ساحة الدعوة الإسلامية، يقتبسون نصوص الدين دون فهم لروح الإسلام ومقاصد الشريعة، فيضلون أكثر مما يهدون، إنهم يحفظون المتون،

ويتقنون الحواشي، ولا يوجد في أعماقهم ذلك التلاحم والوعي الذي يدركون به حكمة الدين في أوامره ونواهيه وأحكامه وتعاليمه.

هم تمامًا كذلك الذي يؤدي صلاته بقيامها وقعودها وحركاتها.. بينما الخشوع والتفكر غائب منعدم في أعماقه، لتكون صلاة بلا روح تجهد الجسد ولا تصقل النفس أو تصهر الوجدان.!

وقديمًا رأى حكيم غلامًا حسن الوجه، فلما استنطقه، لم يجد عنده علمًا، فقال: نعم البيت لو كان فيه ساكن!

وكان هناك راهبان يسيران في يوم مطير، ورأيا في الطريق فتاة حسناء تحاول عبور الشارع، فلا تستطيع من كثرة الوحل وشدة المطر، فحملها الراهب الشيخ وأنزلها على الجانب الآخر.. وبعد وصول الراهبين إلى مقصدهما، قال الراهب الفتى للراهب الشيخ: كيف تحملها، ولمس المرأة حرام؟

فقال الراهب الشيخ: أنا حملتها من جانب ثم انتهيت منها، بوضعها في الجانب الآخر، أما أنت فما زلت تحملها حتى الآن؟!

وهو لا شك جواب يحمل سخرية من الذي يقف عند النصوص، ولا يقيم وزنا للمأساة التي يمكن أن تواجهها فتاة تقف وحيدة في هذا الجو المزعج.

إن فعلًا وإن كان محرمًا في نظر الراهب الصغير، إلا أنه توافق مع مقصد الدين من حفظ العرض لفتاة تعثرت في طريقها، الذي أوشك أن يكون خطرًا عليها، وإيذاءً لمصيرها لو استغل عجزها مريض هنا أو هناك.!

يقولون: إن الفيلسوف اليوناني (يمقرطس) خلع عينيه لئلا يشغله النظر عن التفكير والقراءة عن التأمل.!

وكان (فيثاغورث) أقل منه فظاعة، حيث كان يقضي ليله في التفكير العميق في أحداث يومه.. وإذا كنا اليوم نطالب بالقراءة الواعية فإننا لا نريد للقارئ أن يكون كهذا أو ذاك، وإنما نطالب بتفكير يعادل القراءة وتأملٍ يوازن النظر.!

(ومن لطائف المعاني التي قيلت في القراءة:

القراءة دمع أزهار.. والتفكير: تأليف طاقة

القراءة جمع خرزات والتفكير نظمها في عقد..

القراءة: جمع أزهار وحشائش، وضم حجر كريم إلى حجر كريم..

بينما التفكير: اختيار الصالح واختيار المناسب واستبعاد الفاسد واستبعاد غير المناسب.. القراءة: ضم عقيم إلى عقيم، والتفكير قدرة على الاستيلاء.. حتى من العقيم.. القراءة كتاب وحفظه زيادة نسخة مطبوعة منه.. والتفكير: نفخ الحياة في الصورة، ورد الحياة للميت.. كثرة القارئين في الأمة، زيادة مكتبة جامعة فيها.. وعقل مفكر واحد: باعث الروح، ونور الظلام، وحافزٌ للهمم، وهاديٌ للطريق.

إذن فالقراءة المأمور بها: فهم عميق مستوعب..)[1]

القراءة بلا تأمل كالأكل بغير هضم.. ربما تعجز عن التفكير مرة ومرتين.. لكن حاول أن تجهد نفسك في استحضار بصيرتك مع بصرك، وربما تعجز عن الفهم مرة أو مرتين لكن حاول أن لا تقرأ شيئًا دون فهم.. يروى عن بعض حكماء المسلمين أنه قرأ كتابًا أكثر من ثلاث مرات فلم يفهمه، فيئس منه وتركه، فرأى خنفسة تتسلق جدارًا وتقع، فعد عليها الوقوع فزاد على ثلاثين مرة ولم تيأس، حتى تمكنت بعد ذلك من تسلقه، والانتهاء إلى حيث

[1] – راجع كتاب شبابنا بين العلام الناقص والعلم الجامد للعلامة د. محمود عمارة

أرادت فقال: لن أرضى أن تكون هذه الخنفسة أثبت منى وأقوى عزيمة، فرجع إلى الكتاب فقرأه حتى فهمه!

وإذا كان (ماركوس سيزيرو) يقول: (بيت بلا كتب كجسد بلا روح)

فأنا أقول قراءة بلا تفكير.. هي جسد بلا روح..

قال السباعي[1] رحمه الله: (لا ينمو العقل إلا بثلاث: إدامة التفكير، ومطالعة كتب المفكرين، واليقظة لتجارب الحياة)، وتأتي أروع ميزات وخصائص التفكير، أنه ينقل الفرد من التبعية والتقليد إلى الاستقلالية في التفكير، وقد قيل: (أنا أفكر، إذن أنا موجود)

التفكير ملكة يجب العناية بها وتنميتها في عقل الإنسان، لأنها الميزة التي ميزه الله بها على سائر الكائنات والمخلوقات.. فهي نعمة عظيمة، إن مارسها الفرد واهتم بها وأعطاها حقها عاش سعيدًا، وقد ألفّ العقاد رحمه الله كتابه الشهير (التفكير فريضة إسلامية) والله تعالى أعطى التفكير حظًا عظيمًا في القرآن الكريم فقال تعالى: (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ)[2] وهم أصحاب العقول النيرة المفكرة، بل أمر الله عز وجل بضرورة الاهتمام بالتفكير بقوله تعالى في أكثر من آية: (لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)[3].

بل جعل منه عبادة يستطيع المؤمن بها أن يكون قريبًا من خالقه سبحانه، فهو عبادة من العبادات التي يتقرب بها العبد إلى ربه قال تعالى: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَّ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)[4]

---

[1] – الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله

[2] –البقرة: 269

[3] –البقرة: 219

[4] – سورة آل عمران (191)

اقرأ بحذر

قرأت يومًا لشيخنا الدكتور القرضاوي قوله: "مكتبتي الخاصة تحتوي على مراجع لكثير من العلوم الإنسانية، لكني أقرأها بحذر، لأني أعلم أن الغزو الفكري قد أنشب فيها أظافره، وهي في اتجاهات غريبة المنزع والوجهة والصبغة ....إلخ..."

لكنني الأن وأمام هذا النص أتأمل كثيرًا كلمة: لكني أقرأها بحذر.. وهو باب كبير ينبغي للقاري أن يفهمه ويعيه ويقف حياله، فليس كل مكتوب في الدنيا أو مجموعًا في كتاب تقرأه تطمئن له وتؤمن بقداسته، وتأمل أن يمنحك الثقافة والمعرفة التي تطلبها، أو تعتقد أنه يشبعُ نهمك ويروي غلتك التي تطلب العلم والتزود منه.!

فقبل أن تتسرب إليك الثقافة، يمكن بكل سهولة أن يتسرب إليك الألحاد أو الشرك أو التساهل أو اللامبالاة أو الشك أو الجرأة أو الخطأ أو الهزل أو الميوعة والانحلال أو الريبة في كثير من الثوابت والأصول.

بكل سهولة ويسر إذا لم تقرأ بحذر، يمكن لفكرك أن ينحرف عن جادة الصواب ويميل عن الحق إلى الباطل، ويؤيد أفكارًا تختلف أو تخالف هويتك وثقافتك وعقيدتك وحضارتك.. ولعل هذه مشكلة كثير من المتغربين حينما أوغلوا في كتب المستشرقين واغترفوا منها وأقبلوا عليها إقبال الذباب على حلو الطعام دون أن يتسلحوا بصفة الحذر، بل دون التسلح بالقراءة عن الإسلام نفسه، قراءة تحميهم من هذا الضلال.

كتبت مرة عن تلك الفتاة التي فرحت أمها بأنها تقرأ وتحب المعرفة وأنها ليست على غرار زميلاتها ومن في سنها من الفتيات، ظلت الفتاة تقرأ والأم تحفز وتشجع، حتى كانت الطامة الكبرى، حينما وجدت الأم ابنتها تتحدث عن الإلحاد وتتبنى أفكار الملحدين.. لقد سقنا

المثال ونحن ندعو للرقابة على القراءة، في انتقاء أبنائنا ولا نتركهم هملا وفريسة لكل فكر أثيم.

دائمًا ما أتمثل نقد الأصوليين لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي حينما لاحظوا أنه بقي وفيًا للفلسفة حتى وفاته فقالوا عنه: "معلمنا تَشَرَّب الفلسفة لدرجة صَعُب عليه تقيؤها".

ولعل القراءة الحذرة منهج نبوي.!

سأل أحدهم أحد الشيوخ الكبار فقال: هل يجوز لنا أن نقرأ في كتب الأديان الأخرى غير الإسلام من باب حب الاستطلاع والتعرف على الديانات الأخرى؟

قال الشيخ في رده: لا ينبغي قراءة التوراة ولا الإنجيل ولا غيرها؛ لأنها قد تورث شكًا وشبهة، و قد روي عنه ﷺ أنه لما رأى عمر يقرأ في شيء من التوراة قال: أفي شك يا ابن الخطاب؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعي.

المقصود: أنه لا ينبغي للمسلم أن يقرأ الكتب الأخرى من التوراة والإنجيل وغيرها، إلا من تدعو الحاجة إلى قراءته، كالعلماء الذين يريدون أن يردوا على اليهود والنصارى من كتبهم، فإذا دعت الحاجة للعالم الذي يرد عليهم ويبين أباطيلهم، أن يراجع كتبهم حتى يرد عليهم منها، فلا بأس عند الحاجة لأهل العلم والبصيرة. نعم."

لقد أباح فقط للعلماء أن يخوضوا هذا الميدان، لأنهم مسلحون بصيرون بما يحاك خلف السطور، وعقولهم ليست بالعقول الهينة التي يمكن خداعها والضحك عليها والتغرير بها، ونحن هنا نؤكد أنك حتى لو قرأت بحذر، فلن تضمن أن تعلق بك شبهة من الشبه، لأنك لا أرضية لك من العلم والفهم والوعي.!

كنت منذ نشأتي كنت أضع نصب عيني وصية العلامة الدكتور محمد جميل غازي حينما قال: "اقرأ كل شيء وافهم كل شيء ولا تفتي في أي شيء"

لكنني أمام سمة الحذر قد أتراجع كثيرًا أمام هذه النصيحة، خاصة إذا لم أكن مسلحًا بالعلم الذي يحصنني ويقيني كثيرًا من الزلل.

قال الشيخ في رده: لا ينبغي قراءة التوراة ولا الإنجيل ولا غيرها؛ لأنها قد تورث شكًا وشبهة، والرسول روي عنه ﷺ أنه لما رأى عمر يقرأ في شيء من التوراة قال: أفي شك يا ابن الخطاب؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعي.

المقصود: أنه لا ينبغي للمسلم أن يقرأ الكتب الأخرى من التوراة والإنجيل وغيرها، إلا من تدعو الحاجة إلى قراءته كالعلماء الذين يريدون أن يردوا على اليهود والنصارى من كتبهم، فإذا دعت الحاجة للعالم الذي يرد عليهم ويبين أباطيلهم أن يراجع كتبهم حتى يرد عليهم منها فلا بأس عند الحاجة لأهل العلم والبصيرة. نعم."

لقد أباح فقط للعلماء أن يخوضوا هذا الميدان، لأنهم مسلحون بصيرون بما يحاك خلف السطور، وعقولهم ليست بالعقول الهينة التي يمكن خداعها والضحك عليها والتغرير بها، ونحن هنا نؤكد أنك حتى لو قرأت بحذر فلن تضمن أن تعلق بك شبهة من الشبه، لأنك لا أرضية لك من العلم والفهم والوعي.!

كنت منذ نشأتي كنت أضع نصب عيني وصية العلامة الدكتور محمد جميل غازي حينما قال: "اقرأ كل شيء وافهم كل شيء ولا تفتي في أي شيء"

لكنني أمام سمة الحذر قد أتراجع كثيرًا أمام هذه النصيحة خاصة إذا لم أكن مسلحًا بالعلم الذي يحصنني ويقيني كثيرًا من الزلل.

قراءة الأحرار

طالب بعضهم حديثًا بتدريس مادة التفكير في المدارس والجامعات وتحصيل كل ما يعين على تنميتها، وهو ما أدرك الغرب قيمته فبذلوا فيه جهدهم، حيث نجد بلدًا مثل فنزويلا،

تفرض حكومتها ساعتين على الطلاب في مادة أطلقوا عليها مهارات التفكير، ودربوا على تدريسها أكثر من 100.000 معلم، ووضعوا لها مقرر وصاغه أحد أكبر وأشهر المتخصصين في هذا الميدان، وهو نفس المقرر الذي استعانت به كل من بريطانيا وأستراليا وكندا وأيرلندا ونيوزلاندا.

(ونجد بعض المفكرين من كان يتجه إلى تغليب التفكير على القراءة، وبعضهم يتجه إلى تغليب القراءة على التفكير، ومن المتفق عليه أنه لابد من تخصيص وقت للقراءة ووقت للتفكير.. ويمكن أن تغلب القراءة في البداية، حتى نهيئ لعقولنا مادة التفكير، فالطاحون لا تصنع شيئًا دون وجود شيء تطحنه)

ومما ينسب لعلي عزت بيجوفيتش رحمه الله قوله: (القراءة المبالغ فيها لا تجعلنا أذكياء، بعض الناس يبتلعون الكتب وهم يفعلون ذلك بدون فاصل للتفكير، وهو ضروري لكي يُهضم المقروء، و يُبني و يُتبني و يُفهم، عندما يتحدث إليك الناس، يخرجون من أفواههم قطعًا من هيجل و هايديجر أو ماركس، في حالة أوليه غير مصاغة جيدًا عند القراءة، فإن المساهمة الشخصية ضرورية، مثلما هو ضروري للنحلة العمل الداخلي والزمن، لكي تحول رحيق الأزهار المتجمعة إلى عسل)

يقول الفيلسوف الإنجليزي جون لوك: (إن القراءة لا تمد العقل إلا بمواد المعرفة البحتة، لكن التفكير هو الذي يجعل ما نقرأه ملكًا لنا)

ومما قاله خالد محمد خالد رحمه الله في وصاياه العشر (اقرأ في غير خضوع.! إن للكلمة المطبوعة سلطانًا عظيما، ومالم تحتفظ بثبات رشدك؛ واستقلال عقلك وأنت تقرأ، فستحملك على أجنحتها بعض الكلمات الآسرة، وتلقى بك إلى متاهات، يصعب العثور عليك فيها.!

فاقرأ قراءة الأحرار، لا قراءة العبيد.

اقرأ؛ لتكتشف نفسك لا لتفتقد نفسك.

اقرأ لتتبين الطريق، لا لتصير ذرة تائهة فوق الطريق

اقرأ وناقش ما تقرأ، واحتفظ باستقلالك الفكري، ولا تجعل إعجابك بالكاتب، ينسيك أنك إنسان مثله، وأن من الممكن أن يكون تحت سطح دماغك كنوز تفوق كنوزه.. لا تستسلم لكل ما تقرأ، ولا تستسلم لإغراء الكلمة فثمت كلمات تقرر من غير أن تدري مصيرك كله، فإذا كانت من الكلمات الجامحة، أصابك منها ضر كثير.. والكتاب الذين يكتبون أفكارهم بأسلوب ساخر آسر، سر معهم في أناة.

فنحن لا نقرأ لنزيد معلوماتنا، وننمي معارفنا فحسب، بل نقرأ لأن القراءة تلهمنا وتطل بنا على أفكار عذراء، تنتظرنا لنكشفها ونضيفها إلى تراث الفكر الانساني.. وكأي من مخترع أوحى به لمخترعه، مثل هذه العبارات النابضة.. وكم من روائع فكرية ألهمها كاتبوها، حين استجاشت حماستهم العقلية عبارة مضيئة، قرؤوها أو حركت رصيدهم الفني، لفتة من لفتات الفكر الخلاق.! كأن هذه العبارة أو هذه اللفتة عصا المايسترو، لا تكاد تتحرك، حتى ينطلق العازفون في عزف لحنهم المحفوظ.!

إن في عقلك الباطن، كثيرًا من الرؤى والتجارب، تنتظر عارضًا يسيرًا يدفع بها إلى وعيك.. قد يكون هذا العارض كلمة تسمعها أو مشهدًا تراه، أو عبارة تستوقفك في كتاب.. فلا تقرأ وأنت غافل ساه.. بل طالع في يقظة، وتفتح ومتابعة.. وهيء بصيرتك لتتلقى ما تفيئه الكلمة المسطورة من حكمة وإلهام.. وإذا قرأت، ففكر.

لقد ضرب الله للحقيقة مثلا – أولئك الذين حُرموا نعمة الفقه والتفكير فقال تعالى: (..جَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ..)[1]

فعش مفكرًا، فكر إذن، وفكر دائمًا وحول عقلك في كل اتجاه؛ فإنك لا تدري أي عملاق رابض تحت ضلوعك.. فكر لا لتكون سقراطًا أو توم بن أو الافغاني، وإن كان من الممكن أن تكونه.! فكر لأنك إنسان ومن ضرورات إنسانيتك، أن تكون مفكرًا، وأن تكون لك وجهة نظرك، تجاه عالمك، وتجاه كل قضايا الحياة.)

ولكي نسهل عملية التفكير، ونحاول من خلاله إيجاد طريقة للقراءة الحقيقية، فإننا لا نلقي باللوم على القارئ وحده، وإنما يشاركه الكاتب والمؤلف في بعض هذا، حينما يُعقِّد السهل ويُصعب اليسير، فيحتاج العقل هنا إلى عملية إجهاد تُنفره لا من التفكير وحده، وإنما من القراءة كلها.. وهو الذي حرصت عليه إحدى القارئات حفاظًا منها على ملكة التفكير والتفاعل حيث تقول:

(إنني أبحث في الكتاب عن لغة سلسة ناعمة، بإمكانها أن تتسلل إلى وجداني وعقلي وتفكيري، فتجبرني على التفاعل معها، تلك اللغة، التي تولد الشغف لإتمام القراءة، فأنا ضد إبراز العضلات اللغوية، التي يتبعها بعض الكتاب في استخدام المصطلحات المعقدة) وهي صائبة في اختيارها لأنها تريد أن تفهم وتفكر وتتأمل، ولا تريد لأي كتاب أو كلمة أو قلم أن يصرفها عن هذه الغاية المنشودة التي تقودها للتفكير والاستفادة والمتعة الحقيقية.. ولعل الروائي الأمريكي (ويليام ستايرون) قد عبر عن ذلك حينما قال:(إن الكتاب الجيد هو ذاك الذي يُعطيك العديد من التجارب، ولا يجهدك كثيرًا في استيعابه.. إنه الكتاب الذي يجعلك تعيش أكثر من حياة وأنت تقرأه)

[1] – الأحقاف: 26

وقد كان الحكيم متنوع القراءة، لكنه كان حريصًا أشد الحرص على الكتاب الذي يفيده ولا يهتم أبدا بالكم، وإنما بحثه الدؤوب كان في الكيف، فقد قال في حواره المنشور بالمصور عام 44م " لعل من أمتع الكتب التي قرأتها كانت من الكتب التي تبحث في فلسفة العلم، وأنا ممن يميلون إلى القراءة ببطء كبير، وقد أقرأ صفحة واحدة من كتاب ثم أقضي ساعة في تأمل ما قرأت والتفكير فيه، وقد لا أقرأ في الشهر أكثر من كتاب واحد لهذا السبب، وأقرب الكتب إلى نفسي هي كتب التأمل والفلسفة العميقة، وأنا لا أقرأ منها إلا القصص العالمية الممتازة دون غيرها، ولست ممن يحتاجون إلى مكان خاص أقأ فيه، فقد أقرأ وأنا سائر في الطريق، أو جالس في المقهى، أو عندما أرقد في سريري لأنام.

القراءة والأخلاق

اقرأ ما شئت أن تقرأ

اشتري بمالك ما شئت من الكتب

تحدث هنا وهناك بما قرأت وما عرفت وما أحطت.

ليعرف الجميع بأنك كهف الكتب، ومنبع الثقافة، وموئل المعرفة، وخزينة الأسفار، فإذا ما حار أحدهم يومًا ماذا يقرأ؟ فإنه لا يسأل غيرك.!

وإذا ما أضناه البحث عن كتاب، لا يجده إلا عندك، تفعل كل هذا حتى صرت معلم الثقافة، وعراب القراء، وشارة المثقفين.

ولكن وأمام كل هذه الهالة، هل سألت نفسك يومًا ما أثر هذه الكتب فيك؟

وهل غيرت القراءة من ذاتك شيئا؟

ما أثرها في أخلاقك وطباعك وصفاتك، هل غيرت منك شيئا؟ هل هدتك إلى الفضيلة؟ هل علمتك كارم الاخلاق؟ هل ارتقت بروحك وذوقك ومعاملاتك مع الناس؟

إن القراءة إذا لم تفعل شيئًا من هذا، فلا قيمة لها ولا وزن ولا مقام.!

أتعجب لأديب يكتب الروايات الأدبية بأشكالها الراقية التي تمس شغاف النفس والروح، حتى أن الشباب يعدونه بطل الأدباء وقائدهم وإمامهم، ينظرون له بإكبار ويعدونه قدوة يخطون خطاها.

كل هذه الظنون تعبث بعقل الناظر وخياله، وتفرض عليه ما تريده من وهم.

حتى إذا ما كلمت هذا الأديب أو تحاورت معه، وجدت عجبًا، حيث تجده سليط اللسان، قذر العبارة، نجس الفكرة، ينطق بأبشع الكلمات، ويهذي بأسخف النكات، التي لا فضيلة فيها ولا احترام ولا شرف، حتى يتركك في حيرة من أمرك، لتتساءل: كيف لهذا الأديب الذي قرأ كثيرا من الكتب، والذي يفترض له أن يكون ملائكي الروح ،أن يكون مصطبغًا بهذا القذارة متلونًا بهذا العفن؟!

لتكتشف الحقيقة الكبرى أن الكتب ليست بالمعجزة التي ترتقي بأخلاق الناس، فهي وسيلة للراغبين، ومددًا يؤهل طلاب القيم والأخلاق.

ومن يومها تيقنت أن القراءة التي لا تهدي صاحبها للأخلاق، ولا تهذب الروح، باطلة لا قيمة لها.!

بل أدركت أن الكتب مهما جمعت من حشودها وكدست من صفوفها، فإنها إذا لم تعلم صاحبها معنى الرقي والسمو، فما أرخصها وأبخسها وأهزلها.!

والذين يقرؤون للمتعة فقط، لا تعدو القراءة لديهم أن تكون شهوة كأي شهوة، لكنها أبدًا لا تكون مناط تربية وتعليم وتهذيب.!

أما الذين يقرؤون لتهذيب النفس وتربية الوجدان وإصلاح الطباع واستقامة الذوق، فهؤلاء هم من يعرفون معنى القراءة الحقيقي، ويدركون مغزاها الذي أقيمت له.

وإفادة النفس مما تقرأ، وإهمال الكتب حينما لا تفيد النفس في شيء، هو المعنى الذي أدركه أديبنا الكبير إبراهيم عبد القادر المازني في حصاد الهشيم، وهو يريد أن يشتري نسخة من ديوان المتنبي:

"وكنت كلما نزعتني نفسي أن أشتريه أقول: ما ضرورة ذلك، أليس خيرًا أن يحيا المتنبي في نفسي، من أن يعيش على رف في المكتبة؟ أترى الغاية، من الأدب هي اقتناء الكتب؟ لا وليست هي أن يكون المرء كثير الحفظ، أو مدمن القراءة لم لا ينتفع به، وحسب المرء من الكتب أثرها في نفسه، وفعلها في تهذيبها ورفع مستواها وفكرها، ولخير له أن يقرأ وينسى لفظ ما قرأ، بل معناه أيضًا، ما دامت الفائدة قد حصلت، والنفس إذا كانت خصبة مستعدة، تنمي البذرة التي غرست فيها، وليس يمنع الماء أن البذرة تحت التراب مدفونة."

القراءة الممرضة

لا نعرف في حياتنا إلا أن القراءة تقود إلى النهوض، وتحقق التقدم، وتنشد الارتقاء، فعلى مستوى الأفراد والمجتمعات والأمم، إذا سلك الجميع طريقهم للقوة والتطور والتقدم، فإن القراءة من أهم وأثمن الوسائل التي تحقق لهم هذه الغاية، والأمم التي لا تقرأ، هي أمم جاهلة، لا تنال شيئا من عز الدنيا وفخار الأيام.!

لكننا أمام هذه الحقيقة المسلمة، والتي لا جدال فيها، يمكن أن نقول: إن القراءة تصير شرًا على بعض ممارسيها في بعض الأحيان، وذلك حينما تبلغ في حياتهم حد الإدمان، الذي يتناسون معه صحتهم، وراحة أجسادهم، وهدوء أنفسهم، فتصرفهم عن العناية بها، وتلبية

متطلباتها من الطعام والشراب والتريض والترويح، لأنها سيطرت على هواهم، وصارت في أجوافهم شهوة لا يستطيعون الانصراف عنها، والكف عن متعتها ولذتها.!

ولسان حالهم على ما يقول القائل:

فلو قد ذقت من حلواه طعما * لآثرت التعلم واجتهدتا

ولم يشغلك عنه هوى مطاعٌ * ولا دنيا بزخرفها فُتنتا

ولا ألهاك عنه أنيق روضٍ * ولا دنيا بزينتها كلفتا

فقوت الروح أرواح المعاني * وليس بأن طعمت ولا شربتا

فواظبه وخذ بالجد فيه * فإن أعطاكه الله انتفعتا

طالعت مؤخرًا كتاب قيمة الزمن عند العلماء للعلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى، لقد أبصرت في الكتاب حرصًا عظيما من سلفنا الصالح في العناية بالكتاب والاهتمام بالقراءة يكاد يفوق الخيال، أو أن يشكل ضربًا من الأساطير.

وكان مما ورد فيه عن عشق الإمام ابن تيمية للقراءة والمطالعة، ما نقله تلميذه ابن القيم في روضة المحبين حيث قال: " حدثني شيخنا ابن تيمية قال: ابتدأني مرضٌ ، فقال لي الطبيب: إن مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض، فقلت له: لا أصبر على ذلك ، وأنا أحاكمك إلى علمك، أليست النفس إذا فرحت وسُرّت وقويت الطبيعة فدفعت المرض؟ فقال: بلى.

فقلت له: فإن نفسي تُسرُّ بالعلم فتقوى به الطبيعة فأجد راحةً.

فقال: هذا خارجٌ عن علاجنا."

وحق له أن يبلغ حال المرض حينما نقرأ ونعرف ما قاله عنه تلميذه الحافظ ابن عبد الهادي رحمه الله في العقود الدرية:" لا تكاد نفسُه تشبع من العلم، ولا تروي من المطالعة، ولا تمل

من الاشتغال، ولا تكلُّ من البحث، وقلّ أن يدخل في علمٍ من العلوم في بابٍ من أبوابه إلا ويُفتح له من ذلك الباب أبواب، ويستدرك أشياء في ذلك العلم على حذاق أهله ."

وحينما يقرأ القارئ هذه الآثار يتعجب، ولكنه مع تعجبه يؤمن أن هذه الحال اختص بها السلف الكريم وحدهم دون غيرهم، وأنها كانت من مآثر عصرهم وحده، ولكن هناك في زماننا المعاصر من كان مثلهم ومن بلغ من العياء والمرض بالمطالعة، على غرار ما بلغوا.!

ففي سيرة الأستاذ العلامة السيد أبو الحسن الندوي، نرى كيف كان نهمه في القراءة والمطالعة، حيث بلغ الجد والاجتهاد في الطلب والدراسة، وكان قليل الاكتراث بصحته وأسباب راحته، فلحقته الأمراض، حتى أن أحد شيوخه بلغه حاله فكتب إليه يقول:

" إن لكل عمل مدى، ولكل أمر غاية ونهاية، وقد تعديت في عدم اكتراثك بعافيتك التي هي من نعم الله على عبده.

علي! قد ساءني نبأ أمراضك التي أهلكتك وجعلتك جليس بيت و رهين فراش، وهل ذلك إلا لجورك على سنن الهدى وسبيل الرشاد، ضد سنة من أنت ابنه وسبطه.."

وأمام هذا الإفراط في القراءة إلى هذا الحد المهلك الممرض، نتذكر التفريط فيها كلية في زماننا الحاضر، ونرجو أن تبلغ القراءة في حياتنا الكثيرين منا ولو مرة في الشهر أو الأسبوع، لكننا هجرناها وأهملناها فتأخر ركبنا وصرنا في ذيل الأمم، فدائما نحن هكذا نقع بين الإفراط والتفريط.

الذين طعنوا آباءهم

كتبت كثيرًا عن المصير المؤلم الذي تتعرض له كتب المؤلفين أو المثقفين والقراء والتي تكون عليهم في معزة أبنائهم، لقد كان أكثر شيء يحزن هؤلاء في حياتهم أنهم سيفارقونها بعد موتهم، بل يظل السؤال الذي يحير أحدهم ويؤرقه كثيرًا هو: لمن أترك هذه النفائس والكتب

التي هي حبيبة إلى نفسي بعد موتي؟ وهل هناك من تعز عليه كما تعز علي، ومن يجد حنينها كما أجده في أعماقي؟

والحق أن كثيرين منهم قد وقع ما يحذرونه، وتبددت كتبهم وضاعت، لأن ذريتهم تخاصم الثقافة، وترى الكتب عبئا على أثاث البيت، وشيئًا يجلب الكآبة والضيق، لأن نفوسهم لم تذق حلاوة القراءة، ونشوة المعرفة، ومن ثم يفرطون بها أو يحرقونها أو يمزقونها لجهلهم بقيمتها..

وعن تقيمي للحدث.. لا أعرف لماذا تصور لي نفسي أو يرتسم في خيالي، أن مثل هذا الفعل الغليظ، إنما هو من قبيل الغدر الفاحش بالآباء، وعقوقهم بعد موتهم، وخيانة لذكراهم وعهدهم ومكانتهم، وأنه صورة ضخمة من صور العقوق لهم بعد الفناء، حينما تفرط في شيء كان يحبه أبوك ويعظمه وتهفو إليه نفسه.؟! بل أبلغ من هذا وأعمق، فإن خيالاتي تشط لأشعر مع هذا الصنيع أنه طعنة غادرة نوجهها لآبائنا، حينما فرطنا في كتبهم التي كانت يومًا مهجة أرواحهم.

حاول الأستاذ أنور الجندي وهو يفتش في آثار الراحلين من الأدباء والمفكرين، أن يذكر لنا طرفا من هؤلاء، وكم كانت المفاجأة أن الدكاترة زكي مبارك تبددت كتبه ولا أحد يعرف مصيرها، والتي كانت تقدر بآلاف الأسفار، وكان يجلس أحيانًا على الأرض كما كان يظهر في كثير من صوره، والكتب من حوله هنا وهناك، ولكنها ذهبت واندثرت ربما إلى سور الأزبكية أو المحرقة، أو غيرهما من مصائر النهاية والهلاك!

وأنا أتعجب من هذا، فذريته وأحفاده اليوم يباهون به ويجتهدون في إحياء اسمه وأدبه، وينظمون الأبحاث والمسابقات حوله وحول كتبه، أليس من الأولى بهم أن يخبرونا عن مصير هذا الإرث الذي ضاعت بضياعه أجل ذكرى لهذا الجد العملاق.؟!

كان الأستاذ (محمد برانق) من مؤلفي قصص الأطفال وكتب المدارس الإسلامية، وكان يومًا في جمع من المفكرين والكتاب، فأبدى حيرته في إهداء مكتبته لإحدى الهيئات بعد موته، لأن أبناءه من نهج آخر في الدراسة، ولا يحفلون بالأدب وتراثه وكتبه، ولا باللغة ومراجعها، ويصف الأستاذ الجندي هذه المكتبة وصفًا عجبًا فيقول:

"كانت مكتبة حافلة قيمة تمتد إلى أوائل القرن، ومضى الأستاذ برانق ومضت مكتبته ولا أعلم إلى أين؟" كما تعجب الأستاذ الجندي حينما كان يعد دراسة عن الأستاذ العلامة (محمد فريد وجدي) والذي كان متخصصًا في علوم الدين والروح وله دائرة معارف، وهذا يعني أن الرجل كانت له مكتبة كثيفة ضخمة، وحينما زار بيته بعد سنوات من رحيله، لم يجد شيئًا من هذا التراث، فلا مذكرات ولا مسودات كتب ولا قصاصات ولا شيء عن أي شيء.!

ويبدو أن الورثة سارعوا بالتخلص من كتبه بعد رحيله.

التفريط في الكتب جريرة لا يرتكبها إلا جهلة، بل هي أكبر الأعمال التي ترى فيها الجهل يزهو بنفسه، ويعظم من قدره، ويتيه تربعًا في هذه العقول الواهية التي غدر ظلامها بتراث الآباء.

قام (برناردشو) يومًا بزيارة معرض للكتاب المستعمل، فكانت مفاجأة مذهل محزنة حين وجد نسخة من كتاب كان أهداه إلى أحد أصدقائه معروضًا للبيع وعليه توقيعه، فاشتراها وأهداها إليه مرة ثانية ليلقنه درساً في الاحتفاء والوفاء.

القارئ الجبار

إذا كان الزعيم (سعد زغلول) قد وصف الأستاذ العقاد بالكاتب الجبار، فإني أصفه في هذا المقام بالقارئ الجبار.! نعم.. فهو القارئ الموسوعي، الذي لم يكتف بمجال من المجالات، أو علم من العلوم، أو فن من الفنون، إلا وكان له به اطلاع ومعرفة.. وما كان لهذا القلم

القوي أن يبلغ هذا الحجم الكبير من القوة والمتانة والصلابة والمنعة، إلا وتكون وراءه قراءة قوية عنيفة، تمده بالوقود اللازم، لخلق الجديد من الأفكار والآراء والإبداعات.!

فذات يوم وفي لقاء بالمجمع اللغوي، جلس إليه أحد علماء الزيولوجيا، وكان يردد من حين لآخر هذه الكلمة كلما أراد أن يتحدث في شيء فيقول:(عندنا في الزيولوجيا)! ففوتها العقاد مرة، فلما كررها، انفجرت براكين الغضب، وقال له العقاد بثورة هائلة: عندكم يعني إيه يا.. هل تريد أن تقول: إنني لا أفهم أحسن منك في الزيولوجيا؟!

ويقول الأستاذ الأديب (علي الطنطاوي): (لا أعلم أحدًا قرأ أكثر مني غير الأستاذان العقاد ومحمد كرد علي.!)

ربما حق للعقاد أن نفرده دون غيره بالحديث عن علاقته بالقراءة وارتباطها بحياته، لأنه صاحب المؤلفات العديدة، والمصنفات العميقة، والقارئ النهم الذي رأى في القراءة حياة تضاف فوق حياته، وتضيف له أعمارًا فوق عمره، وخبرات فوق خبراته: حيث قال: (لست أهوى القراءة لأكتب، ولا أهوى القراءة لأزداد عمرًا في تقدير الحساب.. وإنما أهوى القراءة، لأن عندي حياة واحدة في هذه الدنيا، وحياة واحدة لا تكفيني، ولا تحرك كل ما في ضميري من بواعث الحركة.. والقراءة دون غيرها، هي التي تعطيني أكثر من حياة واحدة في مدى عمر الإنسان الواحد، لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق، وان كانت لا تطيلها بمقادير الحساب.. فكرتك أنت فكرة واحدة.. شعورك أنت شعور واحد.. خيالك أنت خيال فرد إذا قصرته عليك.

ولكنك إذا لاقيت بفكرتك فكرة أخرى، أو لاقيت بشعورك شعورًا آخر، أو لاقيت بخيالك خيال غيرك، فليس قصارى الأمر أن الفكرة تصبح فكرتين، أو أن الشعور يصبح شعورين، أو أن الخيال يصبح خيالين.

كلا.. وإنما تُصبح الفكرة بهذا التلاقي، مئات الأفكار في القوة والعمق والامتداد.. والمثل الأعلى على ذلك محسوس في عالم الحس والمشاهدة، ومحسوس في عالم العطف والشعور.. ففي عالم المشاهدة يجلس المرء بين مرآتين فلا يرى إنسانًا واحدًا أو إنسانين اثنين، ولكنه يرى عشرات متلاحقات في نظره إلى غاية ما يبلغه النظر في كل اتجاه.)[1]

بل كانت القراءة عنده هي المعنى الحقيقي للحياة، بل هي هدف الحياة، فإذا لم تكن فلا حياة.. قال له الأستاذ (طاهر الطناحي) يومًا: إن بناء جسمك وما أراه من قوة صحتك ومثابرتك على العمل في الشيخوخة، يبشر بأنك ستصل إلى سن المائة وتزيد، فماذا يكون شعورك وقتئذ وما الكتاب الذي تؤلفه؟

فأجاب: إنني لا أتمنى أن أصل إلى سن المائة كما يتمناه غيري، وإنما أتمنى أن تنتهي حياتي عندما تنتهي قدرتي على الكتابة والقراءة، ولو كان ذلك غدًا.!

ثم تحدث عن أكبر أمانيه في حياته، والتي لم تكن في المال أو الجاه أو المنصب، وإنما كانت في تأليف كتاب عن الإمام الغزالي وفلسفته، وقد عكف على القراءة عنه بعمق في مراحله الأخيرة، ليضع عنه هذا الكتاب، لكنه رحل قبل أن يبدأ فيه.!

انكب العقاد على القراءة منذ الصغر، وقرأ كل ما وقع تحت يده بنهم كبير، فقد قرأ العقد الفريد، والمستظرف، والكشكول، ومقامات الحريري، وكثيرًا من الدواوين قبل أن يبلغ العاشرة من عمره، كما قرأ بالإنجليزية أعمالًا أدبية كثيرة، فكانت ثقافته الغزيرة مستمدة من الحضارتين، وهو ما ساعده كثيرًا ووسع مداركه، لقد أعطته القراءة كل شيء، وأعطاها هو كل ما يملك، حتى كان أشهر القراء في القرن العشرين.

---

[1] أنا – عباس العقاد – ط نهضة مصر

ارتبط العقاد بالكتاب صغيرًا، وكانت لظروف النشأة أثرها في تولد هذا الحب في نفسه، فقد كان والده من أنصار الحركة العرابية، وكان العقاد يرى في بيت أبيه مجلة الأستاذ وغيرها من مجلات عبد الله النديم، ومعها أعداد قليلة من أبو نضارة والعروة الوثقى، ونشرات الثورة التي كانت توزع في الخفاء.

وكان يسمع على الدوام أخبارًا في سير الكتاب الذين يصدرون هذه الصحف ولا سيما النديم.. مما دفعه أن يحاكيه وهو صغير بإعداد مجلة اسمها (التلميذ) على غرار مجلة (الأستاذ) التي يصدرها النديم، ثم يقول: إن هذه الظروف اقترنت بها رغبة ملحة في القراءة والكتابة، وكان يرى والده يقرأ كتب الفرائض والعبادات وبعض كتب التاريخ، ولا سيما تاريخ السيرة النبوية، وتراجم الأولياء الصالحين، ولم يقتصر الأمر على والده، وإنما كان يرى أخواله يقرؤون كتب التصوف والأدب الديني، ولا سيما كتب الغزالي، ومحيي الدين بن عربي، وغيرهم من المتصوفة المتأخرين، ثم يصحبه والده إلى مجلسه، مع شيوخ فيما بين الأربعين والسبعين يسمرون معه في المندرة، ويقضون أوقاتهم في الحديث عن السياسة والأسرة الحاكمة، وقد أفادته هذه الجلسات فائدة كبرى، كان أهمها معرفته بالقاضي أحمد الجداوي، وكان من أدباء الفقهاء، الذين عاصروا جمال الدين الأفغاني، وأخذوا عنه دورسًا في الحكمة والغيرة القومية، وهو رجل يذكره العقاد بأنه قوي الذاكرة، وواسع الحفظ من المنظور والمنثور، يستظهر مقامات الحريري وبديع الزمان ودواوين الشعراء الفحول، ولديه قدرة على منازلة خمسة أو ستة من الأدباء في وقت واحد، فيسكتهم دائمًا ولا يسكتونه مرة واحدة، وكانت معرفة العقاد بهذا الرجل حسب قوله، هي إحدى الدوافع القوية التي حفزته للمطالعة والإقبال على قراءة الكتب والدواوين.

ومن هذه الجلسات، كانت انطلاقة الفتى اليافع نحو القراءة والمطالعة، التي أحبها حينما رأى اهتمام من حوله بها.. وهي بمثابة عملية تشجيع ذاتية، وتوجيه غير مباشر تتوق إليه النفس، حينما ترى المناخ من حولها مصبوغًا به.

لقد ورث العقاد طبيعة الانطواء عن أمه وأبيه، فلم يكن يمل الوحدة وإن طالت، ويستطيع أن يقضي الأيام الطوال في بيته وحيدًا وهو ما يتعذر على غيره من أترابه، ولكنه ومع هذه الانطوائية، لم يكن فارغًا عاطلًا، وإنما كان يشغل نفسه بالقراءة والكتابة.. وفي صباه ومع دخوله للمدرسة، كان هناك دكان بجوارها يبيع الكتب مع أصناف العطارة والحبوب ولوازم أهل الريف ومن هذه الكتب، ما كان يرتفع إلى خمسة قروش أو إلى عشرة قروش كالمقامات والدواوين.

ثم كبر العقاد وكبرت معه هواية القراءة إلى حد التغول، (فاشتهر بسعة اطلاعه وكثرة قراءته لمختلف الكتب، لا يترك نوعًا من أنواع الكتب إلا قرأه، وكانت قراءته سريعة دقيقة، ويفضل قراءة كتب فلسفة الدين وكتب التاريخ العام والتاريخ الطبيعي، وتراجم العظماء ودواوين الشعر، وكان يقول: (إنني أقرأ هذه الكتب وأعتقد أن العلاقة بينهما متينة، وإن كانت تفترق في الظاهر، إذ تؤدي جميعًا إلى توسيع أفق الحياة أمام الإنسان، فكتب الفلسفة الدينية تبين إلى أي حد تمتد الحياة قبل الولادة وبعد الموت، وكتب التاريخ الطبيعي تبحث في أشكال الحياة المختلفة وأنواعها المتعددة، وتراجم العظماء معرض لأصناف عالية من الحياة القوية البارزة، والشعر هو ترجمان العواطف، فأنا لا أقرأ من الكتب إلا ما له مساس بسر الحياة)[1]

---

(1) أنا – للعقاد ط. نهضة مصر

جنة بلا كتب؟!

لا يعرف العالم مثل الجاحظ في عشقه وهيامه بالكتب، حتى أنها كانت سببًا في هلاكه ولقد قيل:

من الحب ما قتل

لقد ذاع اسم الجاحظ كأيقونة عربية في عالم الكتب لأن ولعه لم يكن ترفا معرفيا أو اجتماعيا. فعلاقته بالكتاب حالت حتى دون مواجهته لأعباء الحياة رغم فقره. وأكسبته ميلا للتحرر من تقاليد المجتمع، ليشق سبيله للمعرفة بعيدا عن الأطر الجاهزة. حكى عنه أبو هفان الشاعر قائلا: لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنا ما كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر. ولما صار اقتناء الكتب الفاخرة عنوانا للرفاهية، حرص الجاحظ على أن توجهه بصيرة القارئ الفذ، ليسعى خلف النفيس من العلوم والآداب والحكمة. فإذا عُرضت عليه حتى الأوراق المقطعة التي لا يرى غيره فيها فائدة، فإنه كان يطيل فيها النظر، ويؤدي لها مقابلا. ولما سخر منه أصحابه يوما، قال: أنتم حمقى والله، إن فيها مالا يوجد إلا فيها، ولكنكم جهال لا تعرفون النفيس من الخسيس! حتى موته كان تعبيرا عن الولع بالكتب، فمن عادته أنه يضع المجلدات كالحائط من حوله ثم يجلس ليقرأ. ولما أصيب بالفالج وعجز عن الحركة وقع عليه مجلد فمات.

ونترك ذلك العهد القديم والزمن الذي ولى، لنجد جاحظا آخر في العصر الحديث، لا ينتمي للغرب ولكنه كان مفخرة الشرق، إنه العملاق الذي وصفاه بالقارئ الجبار، حيث كان يتندر بما وصفه به الحكيم وتخيله له في بعض كتبه، بأنه دخل الجنة وذهب يطوف في

أرجائها، عسى أن يرى وجهة مكتبة يقف أمامها، ويتأمل عناوين الكتب فيها، فلما طال به المطاف ولم يجد مكتبة ولا كتبًا ضجر منها وطفق يقول : ما هذا ؟.. جنة بلا كتب؟

وعلق على هذا بقوله: (إن الحكيم صادق في تخيله، لأنني فعلا لا أستطيع أن أعيش في جنة لا أطلع فيها.. نعم لا أطلع فيها وليس من الضروري أن أقرأ، فالقراءة هي إحدى صور الاطلاع)

لقد بدأ يقرأ في كل شيء، وكان أصدقاؤه حينما جاء إلى القاهرة، يتبادلون القراءة، ويذهبون لدار الكتب حتى ينسخون الكتب القديمة.! وكان أول كتاب ألفه عن خواطره ومذكراته مطروحًا في الأسواق، سبع أو ثمان سنوات لا يلتفت إليه أحد، حتى بدأ يكتب في الصحف وأقبل الناس عليه وعلى غيرها مما كتب بعد ذلك من مؤلفات، كان يقرأ في العلم والأدب والتاريخ والفلك والطب وكل شيء، وفي حواره مع الإعلامية (أماني ناشد) أشار لها أن هذا الدولاب الذي على يساره فيه 100 كتاب عن الحشرات يقرأها وينظر فيها.!

ويحكي تلميذه النجيب الكاتب الكبير الراحل (أنيس منصور) في كتابه (في صالون العقاد كانت لنا أيام) أنه أراد ذات يوم أن يثبت للعقاد، أنه لم يقرأ كل شيء ولا يعرف كل شيء وخصوصًا في الفلسفة الوجودية، وهي تخصص أنيس منصور، وقام متباهيًا بذكر أسماء الكتب التي قرأها الفيلسوف الألماني مارتن هيدجر، فسأله العقاد: كم كتابًا له عندك؟ فقال أنيس: كل الكتب التي ترجمت إلى الإنجليزية وهما كتابان، فضحك العقاد ونادى خادمه وقال: هات الكتب الملقاة على السرير، فكانت المفاجأة، بأن جاء الخادم بسبعة كتب للفيلسوف الألماني، وضحك العقاد ليقول: كل شيء موجود هنا يا مولانا، إنني أطلب الكتب وهي في المطبعة.!

يرى العقاد بأن (الكتب لا تغني عن تجارب الحياة، وكذلك لا تغني التجارب الحياتية عن الكتب، لأننا نحتاج قسطًا من التجربة لكي نفهم حق الفهم، أما أن التجارب لا تغني عن

الكتب، فذلك لأن الكتب هي تجارب آلاف من السنين في مختلف الأمم والعصور، ولا يمكن أن تبلغ تجربة الفرد الواحد، أكثر من عشرات السنين)

كما كانت له نظرة إيجابية في الكتب المكررة في الموضوع الواحد، ولم يجعله تشابه الموضوع يعرض عن البقية بحجة أنه قرأ مثله قبل ذلك، وهي فلسفة تؤمن باختلاف وجهات النظر وتمايز الأفكار وتنوعها، واختلاف رؤيتها التي تجلب الفائدة مهما كانت يسيرة، فهو لا يظن أن هناك كتبًا مكررة، لأنه يعتقد أن الفكرة الواحدة إذا تناولها أكثر من كاتب وأكثر من كتاب، أصبحت ألف فكرة، ولم تعد فكرة واحدة، وكان يتعمد أن يقرأ في الموضوع الواحد، أقوال كتاب عديدين، ويشعر بالمتعة والمنفعة من قراءة الموضوعات المتعددة، فكان يقرأ على سبيل المثال في حياة نابليون، أكثر من أقوال ثلاثين كاتبًا، ويثق أن كل نابليون من هؤلاء هو غير نابليون الذي وصف في كتب أخرى.

ولا يفوت العقاد أن يتحدث عن تأثير الكتب في الإنسان بأنواعها فيقول: أما تأثير كل نوع من أنواع الكتب الثلاثة، العلمية والأدبية والفلسفية، فهو أن الكتب العلمية تعلمنا الضبط والدقة، وتفيدنا المعارف المحدودة التي يشترك فيها جميع الناس، والكتب الأدبية توسع دائرة العطف والشعور، وتكشف لنا عن الحياة والجمال، والكتب الفلسفية تنبه البصيرة وملكة الاستقصاء، وتتعدى بالقارئ من المعلوم إلى المجهول، وتنتقل به من الفروع إلى الأصول.. وكل من هذه الأنواع، لازم لتثقيف الإنسان وتعريف جوانب هذا العالم الذي يعيش فيه وأنا أفضلها على هذا الترتيب الأدبية، فالفلسفية، فالعملية.

وحول الفائدة من الكتاب الذي نريد قراءته، فقد أشار العقاد إلى أن القارئ لا يستطيع تحديد حجم ومقدار الفائدة التي يجنيها من قراءة الكتاب، فرب كتاب يقرأه القارئ ويجتهد في قراءته ثم لا يخرج منه بشيء، وكتاب آخر قد يتصفحه مجرد تصفح، فيترك فيه نفسه أثرًا كبيرًا وعميقًا، في كل رأي من آرائه، وفي كل اتجاه من اتجاهات ذهنه.

ويقدم نصيحة للقارئ الذي يصيبه الفتور من القراءة فيقول: لا تُكره نفسك على القراءة، ودع الكتاب في اللحظة التي تشعر فيها بالفتور والاستثقال.. ثم يتحدث عن الكتاب المفيد والمؤثر، ويبين أن الكتاب المفيد هو الذي يزيد من معرفة قارئه، وقدرته على العمل والإدراك وتذوق الحياة، ويكون هذا الكتاب جديرًا بالاهتمام إن وُجد، والإنسان لا يعرف إلا ليعمل أو ليشعر، والمعرفة التي لا عمل وراءها ولا شعور، فخير منها عدمها، وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفرق بين ما يصلح للثقافة والتهذيب وبين مالا يصلح.

أقرأ ولا أستفيد

سألني بعض المحبين للقراءة، والواجدين في أنفسهم حب الأنس بالكتب: مالنا نقرأ ولا نتذكر ما نقرأ، نشعر أننا لا نستفيد من جهدنا مع الكتب بشيء.

وقال أحدهم بائسا يائسا: لقد قرأت كثيرًا وأظنني لو تذكرت كل ما قرأت، لصرت اليوم شيئًا هائلا، وعدوني من كبار المثقفين، ولكن للأسف، ما إن أنتهي من الكتاب، حتى تطير من ذاكرتي كل معلومة قرأتها فيه.. حتى أنا وقبل أن يعرض الحيارى عليّ حيرتهم، ويسألونني عن علاج لدائهم، كنت أتعجب وأموج حيرة، في هذا العاشق المنهوم للكتب، الذي يدور بينه وبيني حديثًا فأشعر معه وكأنه لم يقرأ سطرًا واحدًا، وأتأكد مستيقنًا أنه لم يبيض وجهه بصفحة كتاب في يوم من الأيام.

والحق أنني أعد ما خصني به الله تعالى منذ زمن بعيد بالإجابة على هذا السؤال عطية ومنحة، فقد كان والدي ينزعج كثيرًا من هوسي بشراء الكتب، التي تتزاحم وتتراكم، وتقابلها قراءة ضعيفة واطلاع هزيل، فكان رحمه الله يقول لي حازمًا جازمًا: كنا قديما لا نشتري كتابا جديدًا حتى ننتهي من الذي في أيدينا، نحفظ ما فيه، ونلتهم إبداعاته، ونتغنى بدرره، ونردد ما هامت به أرواحنا في ظلاله.

ولعل أبي وجيله كانوا على خطى العقاد ويقلدونه من منهجه القرائي، ويعملون بنصيحته حينما قال:

"أن تقرأ كتاباً جيداً ثلاث مرات.. خير لك من أن تقرأ ثلاث كتب جديدة"

وفي الغرب قال دو بوفير: اقرأ قليلا و لكن استوعب كل كلمة قرأتها.

ويقول أوليفر سميث: عندما أقرأ كتابًا للمرة الأولى أشعر أني قد كسبت صديقًا جديدًا، و عندما أقرأه للمرة الثانية أشعر أني ألتقي صديقًا قديمًا.

ويقول أمين معلوف: إذا قرأت قراءة فعلية أربعين كتابًا حقيقيًا خلال عشرين عامًا، فبوسعك مواجهة العالم.

ويقول أرنولد توينبي: ليست العبرة في كثرة القراءة ، بل في القراءة المجدية.

ومع الأيام أدركت هذا النصح، وصرت أعمل به، حتى جمعني القدر يومًا بفقيه من فقهاء الثقافة، فبادرني بنصيحة أشد دقة ووعيًا وغورًا من نصيحة أبي حيث قال لي:

احرص دومًا أن تُلقي على الناس كل ما حفظت وقرأت من علم ومعرفة، حدث به الأقران، اغري به المجالس، زين به المحافل، لأن ذلك أدعى إلى ثبوته في ذاكرتك.. ثم ضرب لي الناصح مثالا بالفحول من علماء الأزهر، حينما كانوا يتعلمون العلم في الكتب، فلا يلبثون إلا ويخرجون به على الناس والطلاب والدارسين يحدثونهم به، فإذا لم يجدوا أحدا، خلعوا عمائمهم، ووضعوها أمامهم وحدثوها بما زخرت به أدمغتهم من العلم، لاشك أن من يراهم وهم يحدثون الهواء يظنهم من جملة المجانين، ولكنهم في الحقيقة من جملة الأذكياء، ومن هنا عظم شأن العمائم.

نصيحة ثالثة، عليك أن تعمل بها أيها الراغب في الفائدة والتذكرة وثبات العلم، ورسوخ المعرفة، انظر إلى أي كتاب تقرأه، ستجد في بدايته وقبل مقدمته، صفحة بيضاء أو صفحتين،

عليك أن تدون وتسجل فيها كل ما وقعت عليه عينك واستلذته قريحتك، من فنون القول وجميل البيان، قيد برقم الصفحة كل فكرة أعجبتك، أو حكمة علمتك، أو رأيا ألهمك، أو بيتًا من الشعر أبهرك، أو مفردًا جد عليك.

وحينما تنتهي من الكتاب، راجع هذه المواطن عبر صفحاتها بأرقامها المسجلة، ليسهل عليك الحصول على أغنى ما في الكتاب، والإفادة من خلاصته العذبة، ورحيقه الفواح.

ثم انظر كيف أتحفنا بعض البصيرين بخبراتهم حينما دلونا على فائدة النقاش والحوار.. فما الذي يمنعك إذن أن تنتقي من أصدقائك من يحب أن يسمع منك وتحب أنت أن تناقشه فيما قرأت، فلا شك أن النقاش فائدته عظيمة في تثبيت العلم، وطبع المعلومة، بل والإفادة عليها فيما يعرضه الآخرون من معارفهم وخبراتهم.

بهذه النصائح التي شاءت الأقدار أن أتعلمها قديمًا، يمكن لك لي أن أؤكد لك، أنها من اليوم لو صارت طريقتك وحرفتك، فلن تمر عليك صفحة من كتاب، إلا وقد عصرت فوائدها وحفظت فرائدها.. فابدأ وانطلق.

التكرار يفيد المحتار

تصدمنا بعض الكتب فلا نتجاسر أن نعترف بقبحها ورداءة نظمها لمقام أصحابها، وعلو كعبهم، في محراب الفكر والأدب.

كنت أرمي الكتاب وأُعرض عنه، مكتفيا بالصمت، ولا أجهد نفسي أبدًا في بحثها عن علة هذا النفور، هل هو مني ومن ضعف قدراتي، وقلة علمي وضئيل إمكاناتي، أم من المؤلف وقبح ما كتب، وعسير ما سطر؟

ثم كان هناك منحى آخر حينما أيقنت أن القراءة أذواق، فما مللته يمكن أن يكون قد أعجب غيري من القراء، وقد رأيت كثيرا من هؤلاء، وهم يشيدون بكتب وكتاب، كنت أقف أمام سطورهم، كالأعجمي الذي لا يفقه شيئا من لغة العرب.

وفي أتون هذه الحيرة، أعلمني بعض الأحبة أن هناك نوع من الكتاب، لا تسبر غوره، ولا تدرك عمقه، إلا بإعادة القراءة وكثرة التكرار.. ولا أنسى هذا اليوم الذي أمسكت فيه برواية العفن، حتى ضاقت بها نفسي، وكلّ وعيي، ونفر تركيزي، فطرحتها جانبا، وأخذت أتساءل: كيف لمفكر كبير كمالك بن نبي، أن يكتب بهذا الأسلوب المنفر الممل؟ ظللت في هذه الحيرة حتى أخبرني أحد الإخوة، أن كتابات مالك بن نبي، لا تقف على جمالها حتى تعيد قراءتها مرارًا وتكرارًا، وكأن هناك سر ومفتاح، إذا وقفت عليه، تكشفت لك الغيوب، وبانت لك الأسرار.

وأعترف أنني قليل الصبر، ملول الطبع، فلا تأسرني إلا العبارة السهلة، والتعبير الرشيق، ولست من أولئك الذين يناضلون لاستجلاء المعنى، ويكافحون لتحليل الغوامض، فنفسي قصير في هذا السبيل، وروحي لا تتسع لخوض هذه الرحلة المضنية، ولعلي أقول: إن هناك غناء عن هذه المصاعب، بكتابات ترفع لواء الوضوح وشراع السهولة، ورغم أنني متخصص في دراسة التراث منذ صغري بحكم دراستي الأزهرية، إلا أنني ممن يهيمون بالسهولة والليونة في الأسلوب والتعبير.

أسعد كثيرًا حينما أجد من الكتاب والكبار من يوافق حاله حالي، في لفظ كتاب صعب، واستنكار أسلوب غامض معقد، ولعل تلك السعادة تعينني أن أهرب من اتهام نفسي، وإدانة ذائقتي.

نعم ما كنت أتوقع أن أجد لدى أقرب الناس للرافعي، ما كنت أجد في نفسي من معاناة كتاباته، وما كنت أستطيع التعبير، أمام ما أرى وأسمع من شارات الإعجاب والإبهار ببيانه الذي لا يدانيه فيه أحد.

يقول محمد سعيد العريان، تلميذ الرافعي وصديقه:

"مضت سنوات وشدوت من العلم ما شدوت، وإذا بصديق يدفع إلي كتاب (رسائل الأحزان، واستهواني عنوان الكتاب، فتداولته أقلب صفحاته، لا أكاد أفهم جملة إلى جملة، حتى انتهيت إلى قصيدته حيلة مرآته، فإذا شعر عذب يخالط النفس، وينفذ في رفق إلى القلب؛ وإذا أنا أعيدها مرة ومرة، فلا أدع الكتاب حتى أستظهر القصيدة.حبب إلى هذا الشعر الساحر أن أعود إلى الكتاب، فأقرأه في روية ومهل، لعلني أن أستدرك ما فاتني من معانيه؛ وأذخر لنفسي قوةً من سخر بيانه، وصدق عواطفه؛ وعدت إليه أقرؤه قراءة الشعر، أفهمه بفكري وشعوري، وأنظر فيه بعيني وقلبي؛ فإذا الكتاب يكشف لي عن معناه.

وأحببت الرافعي من يومئذ، فرحت أتتبع آثاره في الصحف والكتب، لا يفوتني منها شيء وأشهد، لقد كنتُ أجهد جهداً مديداً في فهم كتابة الرافعي؛ لأني لم يكن لي عهد بمثلها فيما أقرأ، وما كنت أقرأ من قبل إلا لإزجاء الفراغ، ألتمسه في ذلك النوع الهين من أدب القصص والصحف؛ على أنني كنت إلى جانب ذلك، أحب الشعر، أقرؤه فأفهم ما أقرأ، ذلك ما أعانني على فهم الرافعي، ثم الإعجاب به من بعد، ثم ألا يعجبني إلا مثل ما يكتب"

إنه التكرار إذن والجهد والتعب، حتى يلين لك الصعب، ويسهل لك العسير، ويظهر لك وينجلي هذا المخبوء من قوة البيان، وجسارة البلاغة.

هل تذكر معي ذلك الحكيم الذي كان يقرأ كتابا حتى أعياه فرماه جانبًا.. ثم نظر أمامه فإذا بخنفساء تصد الجدار، وكلما صعدت وقعت، وظلت كذلك حتى بلغت محاولاتها ثلاثين مرة ونجحت، فقال لنفس: أعجزت أن أكون مثل هذه الخنفساء، في صبرها وإصرارها، فأفهم هذا الكتاب؟ وتناوله مرة أخرى، وأعاد القراءة تلو القراءة، حتى فهم واستوعب.

أنواع القراء و القراءة

من الواجب أن نتعرف على أنواع القراء، وأشكال القراءة، التي يكون منها الإيجابي والسلبي، ولك وحدك أيها القارئ أن تنظر وتقارن وتختار لنفسك، في أي اتجاه ترى ذاتك وطبيعتك وقراءتك.

"للقارئ كثير من الأشكال والمستويات، تتأرجح عادة بين الإيجابية والسلبية، وهنا سأرصد سبعة من الأشكال السيئة للقرّاء، التي تُمثّل الشريك السلبي الذي قد يُربك الكاتب بتفاعلاته المحبطة أو تداخلاته الساذجة:

الأول: وهو "القارئ المترصد" الذي لا يهتم بالمحتوى الذي ينتجه الكاتب، ولكنه ينشغل كثيرًا عادة بفكر وثقافة ومعتقد واسم وأصل الكاتب.

الثاني: وهو "القارئ الأناني" الذي يُريد من الكاتب أن يتناول الأفكار والموضوعات التي تتناسب مع عقله ومزاجه.

الثالث: وهو "القارئ الرقيب" الذي يحسب سكنات وحركات الكاتب، ويُنصّب نفسه محاسبًا دقيقًا وحكمًا قاسيًا ضد كل من يختلف معه من الكتاب.

الرابع: وهو "القارئ الكرتون" الذي يبحث عن الكتابات الساذجة والتافهة، ويُروّج لإنصاف الكتاب، ويُقدم لهم الدعم بالمجان.

الخامس: وهو "القارئ الديكور" الذي يتباهى بتلك الكتب التي تغص بها مكتبته الكبيرة، والتي لم يقرأ منها كتابًا واحدًا، فهي مجرد ديكور، تمامًا كأفكاره وقناعاته الديكورية التي لا تحمل عمقًا أو وعيًا.

السادس: وهو "القارئ المتوجس" الذي يرتاب ويخاف من الأفكار والرؤى الجديدة التي قد تُحطم "تابوهاته" ومتبنياته التي لا يقبل المساس بها، فضلًا عن تغييرها.

السابع: وهو "القارئ المؤدلج" الذي يُغيّب عقله وظنه ولا يبحث عن الحقيقة والموضوعية، بل همه الوحيد ورغبته الجامحة، هو خدمة الأيديولوجيا التي يؤمن بها.

الأشكال السيئة للقرّاء كثيرة، ولكنني اكتفيت بسبعة منها، وأعرف أنك – عزيزي القارئ – تملك قائمة طويلة تغص بكثير من تلك الأشكال السيئة للقرّاء."[1]

ثم أخذ الكاتب يرصد أشكال القراءة والقراء الايجابيين، وكأنه يربينا ويبصرنا بسلوكيات القراءة كضرورة لابد أن ينشأ عليها القرئ قبل النظر والمعرفة.

للقراءة، أوجه عدة وألوان مختلفة ومستويات مثيرة، والقرّاء كذلك مختلفون ومتفاوتون ومتعددون، ولا يمكن تأطيرهم في وجه واحد أو تصنيف واحد أو نوع واحد.

حينما سئل الفيلسوف والكاتب الفرنسي الشهير فولتير «1694 – 1778» عمن سيقود الجنس البشري، أجاب: "الذين يعرفون كيف يقرؤون". ولكن، من هم القرّاء الحقيقيون الذين يعتبرون القراءة منهج فكر وأسلوب حياة، بل وأساس تقدم الأمم؟.

"أروع سبعة قرّاء على الإطلاق"، قائمة قصيرة، سأرصد فيها باختصار شديد، هؤلاء القرّاء الرائعون:

[1] – من مقال بجريدة الرياض بتاريخ 11 جمادي آخرة 1441هـ

الأول: "القارئ الناقد" الذي يملك رأياً ووعياً ناقداً حول كل ما يقرأ، فهو كاتب متحرر من سطوة الكاتب، ولا يثق إلا بفكره وفهمه.

الثاني: "القارئ المدمن" الذي يتأبط كتابه ليُرافقه في أي مكان، فهو يقرأ في البيت والمكتب والحديقة والمقهى والمكتبة والباص وفي كل مكان، فالكتاب هو صديقه الأثير.

الثالث: "القارئ المغامر" الذي يعد القراءة رحلة ممتعة ومغامرة مدهشة، فيختار تلك الكتب التي تُبحر به في محيطات الفكر وتُحلّق به في سماوات الدهشة.

الرابع: "القارئ الأنيق" الذي يعرف جيداً ما يقرأ، ويُجيد اختيار المحتوى الذي يُناسب فكره ومزاجه وحاجته، وهو قارئ يُتقن القراءة بطريقة منهجية وبأسلوب منظم، ليحصل على الاستفادة القصوى من كل ما يقرأ.

الخامس: "القارئ الباحث" عن كل الأجوبة والحلول لكل الأسئلة والمشاكل التي يواجهها في حياته، فالقراءة بالنسبة له بحث مستمر وتحقيق عميق.

السادس: "القارئ الدقيق" الذي يملك موهبة فذة في قوة الملاحظة والاكتشاف وقدرة فائقة على إثارة الأسئلة والشكوك، فهو قارئ لا يهدأ أبداً، والقراءة شغفه الوحيد وهمه اللذيذ.

السابع: "القارئ الحالم" الذي يعتبر القراءة جسراً متيناً يصله لضفاف الحقيقة والحرية، وهذا القارئ عملة نادرة في سوق القراءة.[1]

المُحب لا يفرط

وإذا كان الحديث هنا عن الشراء، فلابد أن يقفز إلى الذهن ما ذكروه عن بديله وهي الإعارة، فقد "كان بذل الكتب وإعارتها سُنة محمودة بين طلبة العلم، وسَرت بين الناس

[1] – مقال لفاضل النعماني. صحيفة الرياض 12-2-2020

مواعظ ونصائح تحذر من حبس الكتب. ومما يروى عن الزهري أنه قال: إياكم وغلول الحديث، قيل: وما غلول الحديث؟ قال: حبس الكتب.

وكتب الإمام الشافعي رحمه الله لمحمد بن الحسن رضي الله عنهما يقول: العلم ينهى أهلَه أن يمنعوه أهلَه. وينبغي للمستعير أن يشكر للمعير ذلك ويجزيه خيرًا ولو بالدعاء.

إلا أن القيمة المعنوية، والمادية أحيانًا، لبعض الكتب والمسودات التي دُونت بخط المؤلف، جعلتها عرضة للضياع وعدم الالتزام بردها لأصحابها. فأفرز النقاش الدائر بين طلبة العلم ومحبي الكتب وأرباب المكتبات الخاصة ثلاث وجهات نظر، كان لها الفضل في نشأة وإغناء ما اصطلح عليه بـ"آداب الإعارة": فريق أول آثر إعارة الكتب وعدم رد أي طالب يطلبها حتى وإن كانت نفيسة، قربة لله تعالى، وحرصا على نشر العلم.

ويؤيد هؤلاء توجيه لسفيان الثوري رحمه الله مفاده: من بخل بعلمه ابتلي بثلاث: إما أن ينساه ولا يحفظه، وإما أن يموت ولا ينتفع به، وإما أن تذهب كتبه. وفريق ثان قَيّد الإعارة بشروط، حرصًا على استرجاع الكتب؛ كإعطاء ضمان أو رهن، أو التعهد برد الكتاب، أو الحصول فقط على نسخة عوض المخطوطة الأصلية.

أما الفريق الثالث ففضل عدم الإعارة مطلقًا، إما بخلا بالكتب ومحبة لها، أو لأن الراغبين فيها ليسوا من طلبة العلم ولا يُؤمن جانبهم. واشتهر من هذا الصنف رجل يقال له: إبراهيم بن الفرس، وكان بحوزته مصنفات وكتب نادرة لابن حجر العسقلاني، ولم يكن يسمح بإعارتها حتى ورد عنه قوله: إذا عاينتُ الموت ألقيتها في البحر.

بالمقابل لجأ بعضهم إلى الحيلة لاقتناء الكتب بثمن بخس وعدم رد المستعار منها، فكان الإمام النحوي ابن الخشاب إذا استعار كتابا ثم طولب به يقول: دخل بين الكتب فلا أقدر عليه، وإذا حضر سوق الكتب وصادف كتابا ثمينا، غافَلَ صاحبه وقطع منه ورقة ليأخذه

بثمن بخس، فجمع بذلك عددا لا يوصف من الكتب أوقفها على أهل العلم قبيل وفاته. على هامش الجدل حول الإعارة، نَمت ألوان من التعبير الأدبي التي يحث قسط منها على إعارة الكتب محبة للعلم، ويُحذر القسط الآخر من ذلك محبة أيضا للعلم.

وبين هذه وتلك يستشف المرء تعلقًا فريدًا بالكلمة المكتوبة، وسعيًا للارتواء بكل ألوان المعرفة الإنسانية. وهو الأمر الذي لفت انتباه ويل ديورانت في مؤلفه الشهير (قصة الحضارة) حين قال:

" ولم يبلغ الشغف باقتناء الكتب في بلد آخر من بلاد العالم، اللهم إلا في بلاد الصين في عهد منج هوانج، ما بلغه في بلاد الإسلام في القرون الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر."

و حرصًا على فريضة نشر العلم وتقاسم المعرفة ولو بعد مفارقة الحياة، تفتقت الأذهان عن فكرة الوقف التي تعد بحق معلمًا حضاريًا، وثمرة للرقي الفكري والحس الإنساني الذي تمتعت به أمة الكتب والمكتبات. يُحصي المؤرخون والمهتمون بالوقف الإسلامي عشرات المكتبات ودور العلم، وآلاف المجلدات والمخطوطات التي أسهمت في توفير المعرفة للطلاب. فكان المرء يجمع ويبحث ويكون مكتبة، ويدفع أموالا طائلة لقاء كتب نفيسة، ثم يوقف حصيلة شغفه برمتها لتكون نافذة ثقافية للجميع. فأنشئت مكتبات في الجوامع والمستشفيات والزوايا، وتنافس ذوو السلطة والجاه في تخليد ذكراهم بإحداث المكتبات الوقفية في كل أرجاء البلاد، ووقف الكتب على مدارس ومساجد مع توفير دخل مادي ثابت للتكفل بمصاريفها، وبلغت من الضخامة والانتشار حد انصراف الناس عن شراء الكتب، حتى أنا أبا حيان النحوي كان إذا رأى من يشتري كتابا يقول له: " الله يرزقك عقلا تعيش به، أنا أي كتاب أردته استعرته من خزانة الأوقاف."[1]

ومن طرائف الشعر في هذا الميدان..

[1] – من مقال لحميد بن خيبش بموقع إسلام أون لاين

قال بعضهم:

إني حلفت برب البيت والحرم ... هل فوقها حلفة ترجى لذي قسم؟

أن لا أعير كتاباً فيه لي أرب ... إلا أخًا ثقة عندي وذا كرم

وقال آخر معتذراً عن امتناع إعارته:

لصيق فؤادي منذ عشرين حجة ... وصيقل ذهني والمفرج عن همى

عزيز على مثلى إعارة مثله ... لما فيه من علم لطيف ومن نظم

جموع لأصناف العلوم بأسرها ... فأخلق به أن لا يفارقه كمى

وعاتب أحدهم حابس دفتره:

غدرت بحبس دفترنا ... وعهدي بالأديب ثقه

ولست أحب للأدبا ... ء أن يتأدبوا سرقه!

وكتب بعض الأدباء إلى صديق له يطالبه برد دفتره:

ما بال كتبي في يديك رهينة ... حبست على كر الزمان الأول

فأذن لها في الانصراف فإنها ... كنز عليه إذا افتقرت معولي

ولقد تعنت حين طال مقامها ... طال الثواء على رسوم المنزل

قال أحدهم :

ألا يا مستعير الكتب دعني .... فإن إعارتي للكتب عار

ومحبوبي من الدنيا كتابي ... فهل أبصرت محبوباً يعار !

وأنشد بعضهم :

أيها المستعير مني كتابًا... ارض لي منه ما لنفسك ترضى

لا ترى رد ما أعرتك نفلا...وترى رد ما استعرتك فرضا

إذا كنت امرأ حقا صديقي ... فلا تحسب كتابي يستعار

إذا خرج الكتاب فلا يعود ... ومن يرجو استعادته حمار

ألا حبذا بذل وجودُ ... علا أني بكتْبي لا أجود

فإن المال يأتي بعد عُدم ... وإن خرج الكتاب فلا يعود

وأنشد أبو الكرم خميس بن علي بن أحمد الحوزي لنفسه في إعارة الأجزاء :

كتبي لأهل العلم مبذولة

أيديهم مثل يدي فيها

متى أرادوها بلا منة

عارية فليستعيروها

حاشاي أن أكتمها عنهم

بخلا كما غيرى يخفيها

أعارنا أشياخنا كتبهم

وسنة الأشياخ نمضيها

فداعبه أحدهم رادًا:

كتب أصحابي تملكتها

آخذها منهم وأخفيها

متى أتوني يستعيرونها

عاديتهم حتى يخلوها

قد أكلت أشياخنا كتبنا

وسنة الأشياخ نحييها

وكان بعض أهل العلم لا يعير كتابًا إلا بِرَهْنٍ على الكتاب المعار قال السّكن:

« طلبت من إبراهيم بن ميمون الصائغ كتابًا، فقال: هات رهنًا، فدفعت إليه مصحفًا رهنًا»[1]

وأنشد علي بن أبي بكر الطّرازي :

يا مستعير كتابي ❋ لا تكثرنَّ عتابي

إلاّ برهنٍ وثيق ❋ من فضةٍ أو ثيابِ

وأنشد أبو حفص عمر بن عثمان الجنزي :

إذا ما أعرتَ كتابًا فخذْ ❋ على ذاك رهنًا وخلّ الحياء

فإنّك لم تَتهِم مستعيرًا ❋ ولكنْ لتَذكُرَ منه الأداء

[1] – أدب الإملاء والاستملاء ،صـ178

المحتويات

مقدمة 4
لماذا تأخرنا وتقدموا؟ 7
شهوة الكتب 10
مكتبة أبي 15
دعوهم يشترون الكتب 19
حكامنا والكتب 24
صندوق سموري 29
الكتب في القلب 32
الكتب في المحن 35
خلف القضبان 38
الأدب و المواجهة! 42
روايات مؤثرة 44
العار الثقافي 48
اقرأ لخصومك 52
الجمال الذي فقدناه 57
مثقفون يجهلون دينهم ! 60
العلاج بالقراءة! 63
أرجوكم لا تقرؤوا 68
قراطيس الطعمية 70
كتب ونيران! 73
اقتنوا كتب الموت 75
اللوم علينا ابتداء 78
القراءة الواعية 82
اقرأ بحذر 86
قراءة الأحرار 88
القراءة والأخلاق 92
القراءة الممرضة 94
الذين طعنوا آباءهم 96
القاريء الجبار 98
جنة بلا كتب؟! 103
أقرأ ولا أستفيد 106
التكرار يفيد المحتار 108
أنواع القراءة والقراء 111

المحب لا يفرط 113